إميل ناصيف

أروع ما قيل في الرثاء

دار الجيل
بيروت

Bibliotheca Alexandrina
0161085

أروع ما قيل
في
الرثاء

أروع ما قيل في الرثاء

إعداد

إميل ناصيف

دار الجيل
بيروت

جَمِيعُ الحُقوقِ مَحْفوظَة
الطبعَة الثانيَة

المقدمة

الرِّثاء فنٌّ من فنون الشِّعر الغنائيّ يُعَبِّر فيه الشاعر عن حزنه وتفجّعه لفقدانِ حبيب. وهو يتلوّن بألوان مختلفة تبعاً للطبيعة والمزاج والمواقف، فإذا غلب عليه البكاء على الرّاحل، وبثّ اللوعة والحزن، كان نَدْباً، وإذا غلب عليه تسجيل الخصال الحميدة التي تمتّع بها الفقيد في حياته، كان تأبيناً. وإذا غلب عليه التأمّل في حقيقة الموت والحياة كان عزاءً. وقد يجتمع الندب والتأبين والعزاء في القصيدة الواحدة.

والرّثاء يقترن بالموت، وليس في العالم أمّة لم تعرف الرّثاء، كما أنّه ليس فيه أمّة لم تعرف الموت، فالرّثاء وُجد عند كلّ الأمم والشّعوب باديةً وراقيَةً مُتَحضِّرة.

وعرف أدبنا الرّثاء منذ العصر الجاهلي، إذ كانت النساء والرجال جميعاً ينـدبون المـوتى، كما كـانوا يقفـون على قبورهم مُـؤَبِّنين لهم مُثْنين على خصالهم. وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت، وأنّ ذلك مصيرٌ محتوم.

وأشهر شعراء الرّثاء في الأدب العربيّ المُهَلْهِل والخنساء في العصر الجاهليّ، وحسّان بن ثابت ومتمّم بن نويرة في عصر صدر الإسلام، وجرير في العصر الأمويّ، والمتنبّي وابن الرومي وأبو تمّام في العصر العباسيّ، والأخطل الصّغير، وحافظ إبراهيم في العصر الحديث.

وقد أثبتّ في كتابي هذا أروع ما وجدته لهؤلاء الشعراء من قصائد الرّثاء، وضممتُ إلى هذه القصائد أخواتٍ لها لشعراء آخرين لم يقلّوا جودَةً في رثائهم عن الشعراء الخالدين الذين سبق ذكرهم.

وآمل أن تُعجب هذه الباقة من قصائد الرثاء التي اخترتها القُراءَ الأعّزاء، فأكون قد وُفِّقت في عملي، وإلاّ فحسبي أنِّني حاولت، والله وليّ التوفيق.

المؤلّف

من الرثاء في العصر الجاهلي

المهلهِل

هو عديّ بن ربيعة التغلبيّ، وخال الشاعر امرىء القيس، لُقِّب بالزِّير لكثرة مجالسته النساء. كان يقضي أيّامه في اللهو وشرب الخمر. وكان له أخ اسمه وائل، ولقبه كليب، وامرأته جليلة بنت مرّة الشّيباني من بكر، وكان لمرّة عشرة بنين أصغرهم جسّاس. وحدث يوماً أن نزلت خالة جسّاس، واسمها البسوس، على جسّاس، فرمى كليب ناقتها وفصيلها بقوسه، فقتل الفصيل، وراحت الناقة تعجّ. فلمّا رأتها البسوس صاحت: «وا ذلّاه». فقال لها جسّاس: اسكتي، فلكِ بناقتكِ ناقةٌ أعظم منها». فأبت إلّا رأس كليب. فقتل جسّاس كليباً، وهبّ المهلهل يطلب ثأر أخيه، ونشبت الحرب بين بكر وتغلب، فدامت أربعين سنة ودُعيتْ حرب البسوس. وقد أبدى المهلهل في تلك الحرب شجاعة نادرة، وأُسِر في آخر الأمر، ومات في أسره سنة ٥٣١ م.

للمهلهل ديوان شعر أهمّ ما فيه رثاؤه لأخيه كليب. ورثاؤه مزيج من دمع وحرب، من عاطفة رقّة تنبعث من قلب محبّ، وعاطفة خشونة تنبعث من حالة البراءة والفطرة.

رثاء كليب

أهــاجَ قَــذَاةَ عَـيْنــيَ الاذّكــارُ
هُـدُوءًا فالـدُّمُوعُ لهـا انحِـدارُ[1]
وصــارَ الليــل مُشْتَمِــلاً عَلَيْنَــا
كــأنّ الـلَّيْــلَ ليس لَــهُ نَـهَــارُ
وَبِتُّ أُرَاقِبُ الـجَـوْزَاءَ حَتَّـى
تَقَــارَبَ مِنْ أَوائلهــا آنحــدارُ[2]
أُصَــرِّفُ مُقْلَتِـي في إِثْــرِ قَــوْمٍ
تَبَــايَنَـتِ البــلادُ بِهِمْ فَغَــارُوا[2]
وَأَبْـكِي والـنـجـومُ مُــطَلَّعَــاتٌ
كــأنْ لَمْ تَحْـوِهــا عَنِّي البِحَــارُ
على مَنْ لــو نُعِيتُ وكــان حَيّــاً
لَقَــادَ الخَيْــلَ يَحجُبُهــا الغُبَــارُ
دَعَــوْتُـكَ يــا كُلَيْبُ فَلَمْ تُجِبْني
وَكَيْفَ يُـجِيبُنـي البَـلَدُ القِـفَــارُ
أجِبْنـي يــا كُـلَيْـبُ خَـلاَكَ ذَمٌّ
ضَنِينَــاتُ النُّفُـوسِ لهــا مَــزَارُ
أَجِبْني يــا كُـلَيْـبُ خَـلاَكَ ذَمٌّ
لَقَــدْ فُجِعَتْ بِـفَــارِسِهــا نِــزَارُ

---

(١) القذاة: ما يخرج من العين الرمداء. هدوءاً: في هدأة الليل، سكونه.
(٢) الجوزاء: برج في السماء.

سَقَــاكَ الغَيْثُ إنّـكَ كُنْتَ غَيْثـاً
وَيُسْــراً حيـن يُلْتَـمَسُ اليســارُ
أبَتْ عَيْنَــاي بَعْــدَكَ أنْ تَـكُفّـا
كـأنّ غَضَى القَتَـادِ لهـا شِفَـارُ(١)
وإنَّــكَ كُنْتَ تَحْلُمُ عَنْ رِجــالٍ
وَتَـعْفُــو عَـنْهُـمْ ولَـكَ آقْـتِـدَارُ

المهلهل

(١) الغَضَى: نوع من الشجر. القتاد: الشوك. الشفار: منابت أهداب العين.

الخنساء

هي أمّ عمرٍو بنت عمرو بن الشّريد السّلميّة الملقّبة بالخنساء. ولدت نحو سنة ٥٧٥ م، ونشأت في بيت ثروة وجاه. وكان لها أَخَوان: معاوية وصخر، وكان صخر يعطف عليها بنوع خاصّ، فقُتِلا كلاهما. وكان لمقتلهما صدى بعيد في نفسها، فبكت حتّى تقرّحت مقلتاها، بل حتّى عميت، وذاب قلبها التياعاً، ورثتهما بشعر رقيق، وخصّت صخراً بالقسم الأكبر منه. وقد أدركت الإسلام فاعتنقته مع بنيها، وكانت وفاتها سنة ٦٦٤ م.

لها ديوان شعر كلّه في رثاء أخويها، ولا سيّما صخر، يشعر من يقرأه أنّه في مأتم يسمع فيه عويل النائحات، وندب النادبات. هو ديوان امرأة أُصيبت في الصميم، وفقدت من تُحبّ ومن كان للحرب سيفاً بتّاراً، وللمجالس سيّداً مختاراً، وللقرى والضّيافة نحّاراً، وللنجدة فارساً مغواراً. وهي، في رثائها، تتمثّل أبداً أخاها وتخاطبه، وتصوّره بحبّ أخويّ صادق، وتبكي ولا تملّ من مخاطبة العينين تسألهما الدمع، والعينان تجيبان، وإذا الدمع نار في هشيم، وإذا اللوعة أبداً في ازدياد. وفيما يلي بعض النماذج من رثائها.

رثاء صخر

يُــؤَرِّقُني آلتَّــذَكُّــرُ حِينَ أُمْسِـي
فَـأُصْبحُ قَـدْ بُلِيتُ بِفَـرْطِ نُكْسِ
عَلَى صَخْــرٍ، وَأَيُّ فَتًى كَصَخْــرٍ
لِيَـوْمٍ كَرِيهَـةٍ وَطِعَانِ خَلْسِ؟[1]
فَــلَمْ أَرَ مِــثْــلَهُ رُزْءاً لِــجِــنٍّ،
وَلَــمْ أَرَ مِــثْــلَهُ رُزْءًا لإِنْسِ[2]
يُـذَكِّرُنِي طُلُوعُ آلشَّمْسِ صَخْـراً
وَأَذْكُــرُهُ لِكُـلِّ غُــرُوبِ شَمْسِ
وَلَــوْلاَ كَثْــرَةُ آلْبَــاكِينَ حَــوْلِي
عَلَى إِخْــوَانِهِمْ، لَقَتَلْتُ نَفْسِـي!
وَلَــكِــنْ لاَ أَزَالُ أَرَى عَــجُــولاً
وَبَــاكِيَـةً تَنُــوحُ لِيَـوْمِ نَحْسِ[2]
أَرَاهَــا وَالِـهــاً تَبْـكِي أَخَــاهَــا
عَـشِيَّــةَ رُزْئِــهِ، أَوْ غِـبَّ أَمْسِ
وَمَــا يَبْكِينَ مِثْــلَ أَخِي، وَلَـكِنْ
أُعَـزِّي آلنَّفْسَ عَنْـهُ بِـآلتَّـأَسِّي[4]
فَــلاَ، وَآلــلَّهِ لاَ أَنْسَــاكَ حَـتَّـى
أُفَــارِقَ مُـهْجَـتِي وَيُـشَقَّ رَمْـسِي

(١) طعان خلس: أي طعان فيه إعجال وشجاعة وحذر.
(٢) الرزء: المصيبة.
(٣) العجول: الثكلى الشديدة الحزن من النساء.
(٤) التأسي: التصبر.

فَقَدْ وَدَّعْتُ، يَوْمَ فِرَاقِ صَخْرٍ
أَبِي حَسَّانَ، لَذَّاتِي وَأُنْسِي
فَيَا لَهْفِي عَلَيْهِ وَلَهْفَ أُمِّي
أَيُصْبِحُ فِي ٱلضَّرِيحِ وَفِيهِ يُمْسِي!

قذًى بعينك

قَذًى بِعَيْنِكَ أَمْ بِٱلْعَيْنِ عُوَّارُ أَمْ
ذَرَّفَتْ أَنْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا ٱلدَّارُ؟(١)
كَأَنَّ عَيْنِي لِذِكْرَاهُ، إِذَا خَطَرَتْ
فَيْضٌ يَسِيلُ عَلَى ٱلْخَدَّيْنِ، مِدْرَارُ
تَبْكِي لِصَخْرٍ، هِيَ ٱلْعَبْرَى، وَقَد وَلِـ
ـهَتْ وَدُونَهُ مِنْ جَدِيدِ ٱلتُّرْبِ أَسْتَارُ(٢)
تَبْكِي خُنَاسُ، فَمَا تَنْفَكُّ، مَا عَمَرَتْ،
لَهَا عَلَيْهِ رَنِينٌ، وَهْيَ مِفْتَارُ(٣)
تَبْكِي خُنَاسُ عَلَى صَخْرٍ، وَحُقَّ لَهَا،
إِذْ رَابَهَا ٱلدَّهْرُ إِنَّ ٱلدَّهْرَ ضَرَّارُ
لَا بُدَّ مِنْ مِيتَةٍ فِي صَرْفِهَا غِيَرُ
وَٱلدَّهْرُ فِي صَرْفِهِ حَوْلٌ وَأَطْوَارُ(٤)

---

(١) العوار: رمد العين. أن خلت: أي لأن خلت.

(٢) العبرى: التي لا تجف دموعها. ولهت: اشتدّ جزعها. الأستار: طبقات التراب فوق الميت.

(٣) المفتار: المنكسرة.

(٤) في صرفها: في حدوثها وتصرفها. غير الدهر: نوائبه. الحول: التحول.

قَـدْ كَـانَ فِـيكُـمْ أَبُـو عَمْـرٍو يَسُـودُكُم
نِـعْـمَ آلْـمُـعَـمَّـمُ، لِـلدَّاعِيـنَ نَـصَّـارُ[1]

صُـلْبُ آلـنَّحِيـزَةِ، وَهَّـابٌ، إذا مُـنِعُـوا
وَفِي آلْحُـرُوبِ جَرِيءُ آلصَّـدْرِ مِهْصَـارُ[2]

يَـا صَـخْـرُ وَرَّادَ مَـاءٍ قَـدْ تَـنَـاذَرَهُ
أَهْـلُ آلْـمَـوَارِدِ، مَـا فِـي وِرْدِهِ عَـارُ[3]

مَشَى آلسَّـبَنْتَى إِلَى هَيْجَـاءَ مُعْضِلَةٍ
لَـهُ سِـلاَحَـانِ: أَنْـيَـابٌ وَأَظْـفَـارُ[4]

وَإِنَّ صَـخْـرًا لَـوَالِـيـنَـا وَسَـيِّـدُنَـا
وَإِنَّ صَـخْـرًا، إِذَا نَشْـتُـو، لَنَـحَّـارُ[5]

وَإِنَّ صَـخْـرًا لَـمِـقْـدَامٌ إِذَا رَكِـبُـوا
وَإِنَّ صَـخْـرًا، إِذَا جَـاعُـوا، لَعَـقَّـارُ[6]

أَغَـرُّ أَبْـلَجُ، تَـأْتَـمُّ آلْـهُـدَاةُ بِـهِ
كَـأَنَّـهُ عَـلَـمٌ فِـي رَأْسِـهِ نَـارُ[7]

---

(١) المعمم: المسود.
(٢) النحيزة: الطبيعة. المهصار: الكثير الدق للأعناق.
(٣) وزاد ماء: أرادت إقدامه على الموت. تناذره: أنذر بعضهم بعضاً بصعوبته وهوله. أهل الموارد: أي الأبطال.
(٤) السبنتى: النمر. الهيجاء المعضلة: الحرب الشديدة.
(٥) نشتو: ندخل في الشتاء.
(٦) العقار: من عقر الإبل أي حصد قوائمها بالسيف لكيلا تشرد وقت النحر.
(٧) الأغرّ: الكريم والشريف. الأبلج: المشرق الوجه.

جَـلْدٌ، جَـمِيـلُ ٱلْـمُـحَـيَّـا كَـامِـلٌ وَرِعٌ
وَلِلْحُـرُوفِ، غَـدَاةَ ٱلـرَّوْعِ ، مِسْـعَـارُ[1]
حَـمَّـالُ أَلْـوِيَـةٍ، هَـبَّـاطُ أَوْدِيَـةٍ
شَـهَّـادُ أَنْـدِيَـةٍ، لِـلْجَـيْشِ جَـرَّارُ
وَلَا تَـرَاهُ، وَمَـا فِـي ٱلْـبَـيْـتِ، يَـأْكُـلُهُ
لَـكِـنَّـهُ بَـارِزٌ بِـٱلـصَّـحْـنِ مِـهْـمَـارُ[2]
قَـدْ كَـانَ خَـالِصَتِي مِنْ كُـلِّ ذِي نَـسَبٍ
فَـقَـدْ أُصِيـبَ، فَمَـا لِـلْعَيْشِ أَوْطَـارُ[3]

(١) الجلد: الصبور. الورع: المجنب لما فيه إثم. الروع: الخوف والحرب. المسعار: موقد نار الحرب.
(٢) المهمار: الكثير البذل.
(٣) خالصتي: من يخلص الي المودة.

من الرثاء في العصر الإسلامي والأموي

متمّم بن نويرة

هو متمم بن نويرة بن جمرة اليربوعي التميميّ (. . . - نحو ٣٠ هـ/نحو ٦٥٠ م) شاعر فحل، صحابيّ، من أشراف قومه، اشتهر في الجاهلية والإسلام. قُتِل أخوه مالك في حرب الرّدّة، فرثاه رثاءً حارًّا، وظلّ يبكيه حتّى ابيضّت عيناه من الحزن، وحتّى أسخط عمر بن الخطاب على ما كان من قتل خالد بن الوليد له، وصار ندبه لأخيه مصيرَ الأمثال، ومن بديع قوله فيه:

لَقَدْ لامَني عِنْدَ القُبورِ على البُكا
صَديقي لِتَذْرافِ الدّموعِ السَّوافِكِ
يَقولُ: أَتَبْكي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ
لِقَبْرٍ ثَوَى بينَ اللِّوى فالدَّكادِكِ
فقُلْتُ لَهُ: إنَّ الشَّجَى يَبْعَثُ الشَّجَى
فَدَعْني، فَهَذا كُلُّهُ قَبْرُ مالِكِ

* * *

أَبَى الصَّبْرَ آياتٌ أراها وَإنّني
أَرَى كُلَّ حَبْلٍ بَعْدَ حَبْلِكَ أَقْطَعا[1]

(١) أقطع: مقطوع.

وَإِنِّي مَتَى مـا أَدْعُ بـاسْمِكَ لا تُجِبْ
وَكنتَ حَرِيًّـا أَنْ تُجيبَ وَتَسْمَعَـا
تَحِيَّتُهُ مِنِّي وَإِنْ كـان نـائيـاً
وَأَمْسَى تُراباً فوقَهُ الأَرْضُ بَلْقَعـا[1]
فـإِنْ تَكُنِ الأَيَّامُ فَرَّقْنَ بَيْنَنـا
فَقَدْ بـانَ[2] مَحْمُوداً أَخي حِين وَدَّعـا
وكُنّـا كَنَدْمـانَيْ جَذيمَةَ حِقْبَةً
مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قيلَ: لَنْ يَتَصَدَّعـا[3]
فَلَمَّـا تَفَرَّقْنَـا كَـأَنِّي ومـالكـاً
لِطُولِ اجْتِمـاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيلَةً معـا
ولـو أنَّ مـا أَلْقَى أصـاب مُتـالعـاً
أَوِ الـرُّكْنَ مِنْ سَلْمَى إِذَنْ لَتَضَعْضَعَـا[4]

(١) بلقع: أرض قفر.
(٢) بان: فارق.
(٣) جذيمة هو جذيمة الأبرش نادَمَ مالكاً وعقيلاً ابني فارج بن كعب ثمّ قتلهما. يتصدَّعا: يتفرَّقا.
(٤) متالع وسلمى: جبلان.

حسّان بن ثابت الأنصاريّ

هو حسّان بن ثابت الأنصاري (... - ٥٤ هـ/ ٦٧٤ م) الصّحابيّ، شاعر النبيّ ﷺ. عاش ستين سنة في الجاهليَّة، ومثلها في الإسلام. قال أبو عبيدة: فضل حسّان الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهليَّة، وشاعر النبيّ في النبوّة، وشاعر اليمانيِّين في الإسلام.

من أهم قصائده تلك التي رثى بها الرسول ﷺ، وفيما يلي بعض أبياتها:

رثاءُ الرّسُول

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ
مُنِيرٌ وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُومُ وَتَهْمَدُ(١)

وَلَا تَنْمَحي الآيَاتُ من دَارِ حُرمَةٍ
بِها مِنْبَرُ ٱلهادي ٱلَّذِي كانَ يَصْعَدُ(٢)

(١) طيبة: هي مدينة النبي، وهو، صلوات الله عليه، الذي سمّاها بذلك. المعهد: المنزل الذي لا يزال القوم إذا انتأوا عنه رجعوا إليه. الهمود: البلى في كل شيء.

(٢) الآيات: جمع آية وهي العلامة، وقوله «الذي كان يصعد» أي المنبر الذي كان يصعده الهادي صلوات الله عليه.

وَواضِـحُ آيَـاتٍ وَبَـاقِي مَعَـالِمٍ
وَرَبْـعٌ لَـهُ فِيـهِ مُصَلًّى وَمَسْجِـدُ
بِهَـا حُجُرَاتٌ كـانَ يَنْزِلُ وَسْـطَهَا
مِنَ ٱللَّهِ نُـورٌ يُسْتَضَاءُ وَيُـوقَـدُ(١)
مَعالِمُ لَمْ تُطْمَسْ عَلَى ٱلْعَهْدِ آيُهَا
أَتَاهَا ٱلْبِلَى فالآيُ مِنْهَا تَجَـدَّدُ(٢)
عَرَفْتُ بِهَا رَسْمَ الرَّسُولِ وعَهْـدَهُ
وقَبْـراً بِهِ وَارَاهُ في التُّـرْبِ مُلْحِدُ
ظَلِلْتُ بِهَا أَبْكِي الرَّسُولَ فَأَسْعَدَتْ
عُيُونٌ وَمِثْلاهَا مِنَ ٱلْجَفْنِ تُسْعِدُ(٣)
تَـذَكَّـرُ آلاءَ الـرَّسُـولِ وَمَـا أَرَى
لَهَا مُحْصِياً نَفْسِي فَنَفْسِي تَبَلَّدُ(٤)
مُفَجَّعَـةٌ قَـدْ شَفَّهـا فَقْـدُ أَحْمَــدٍ
فَـظَلَّتْ لِآلاءِ الـرَّسُـولِ تُعَـدِّدُ(٥)

---

(١) الحجرات: جمع حجرة يعني مساكن السيد الرسول.

(٢) لم تطمس: لم تتغيّر. آيها: أي إن آياتها لا تزال على ما تعهد. الآي منها تجدّد: أي تتجدّد، ولعل المراد بالآي ههنا آيات الذكر الحكيم.

(٣) فأسعدت عيون: أي فأعانتني عيوني وساعدتني فأتتني بالدموع لمكان اللوعة مني. وقوله «ومثلاها من الجفن» جفن العين غطاء العين من أعلى وأسفل، والمراد بالجفن هنا العين نفسها. يقول: ومثل عيني تؤاتي بالدمع.

(٤) قوله «تذكّر» بحذف احدى التاءين: أي تتذكّر، والفاعل قوله: «نفسي». وقوله «تبلّد» إنّما هو تتبلّد بحذف إحدى التاءين كذلك، وتتبلّد: أي تلحقهـا حيرة، والتبلّد أيضـاً نقيض التجلّد، وهو استكانة وخضوع.

(٥) مفجّعة: يقال فجّعته المصيبة وفجّعته: أوجعته فهو مفجع أي موجع، والفـاجعة الـرزيّة =

وَمَـا بَلَغتْ مِنْ كُـلِّ أَمْـرٍ عَشِيـرَهُ
وَلَكِنَّ نَفْسِي بَعْضَ ما فِيهِ تَحْمَدُ(١)
أَطَالَتْ وُقُوفاً تَذْرِفُ العَيْنُ جُهْدَها
على طَلَلِ ٱلْقَبْرِ ٱلَّذِي فِيهِ أَحْمَدُ
فَبُورِكْتَ يا قَبْرَ الرَّسُولِ وبورِكَتْ
بِلادٌ ثَوَى فيهَا الرَّشيدُ المُسَدَّدُ(٢)

=الموجعة التي تفجع الإنسان بما يعزّ عليه من مال أو حميم. شفّه عليه الحزن والهمّ: لذع قلبه وأضمره وهزله حيث رقّ. وهو من قولهم شفّ الثوب إذا رقّ حتى يصف جلد لابسه تعدّد مضارع عدد أي عدّ.

(١) العشير: في الأصل كالعشر: الجزء من أجزاء العشرة، وجمع العشير أعشراء مثل نصيب وأنصباء وقوله بعض ما فيه أي بعض ما في كل أمر.

(٢) المسدّد: يُقال سدّده الله وفّقه للسداد وهو الصواب والقصد من القول والعمل.

جرير

هو أبو حرزة جرير بن عطيّـة (٣٣ هـ/ ٦٥٣ م - ١١٤ هـ/ ٧٣٣ م) اشتهر بالهجاء، وراح يرمي به الخصوم قويًّا شديد اللهجة، فذاع صيته، وردّدت اسمه الركبان. نشبت بينه وبين الفرزدق حرب هجائيّة دامت خمسين سنة، كان الشاعر منهما ينظم القصيدة ويبعث بها إلى خصمه، فينقض الخصم ما قيل فيها بقصيدة ينظمها على الوزن نفسه، والقافية نفسها. وسمِّيت تلك القصائد «النقائض».

له ديوان شعر في المدح، والرثاء، والغزل، والهجاء. ورثاء جرير سواء أكان في ذويه أم في غيرهم، هو رثاء من يشعر بالمصيبة شعوراً عميقاً، فينهدُّ لها كيانه، ثم يطلق اللسان فيما يفيض من القلب، وإذا اللسان ترجمان النفس، والألفاظ أنفاس حارّة، وإذا الشعر يسيل سيلان الدموع المنهمرة، في انسجام، وسهولة، ورقّة؛ وإذا أمامك مشهد مؤلم، هو مشهد تتراءى فيه ذكريات الرجل أحبّـةً وصفاتٍ محبّبـة إلى كل نفس، وأعمالاً غرّاء؛ وإذا الشاعر ينطلق بين المناجاة، والنداء، ومخاطبة الميت، والأخبار، رائع الأسلوب، عجيب السلاسة؛ وإذا الزفرات المتصاعدة أدعيَة واستلفاتاً تقف بين المقطع والمقطع، وبين الفكرة والفكرة، شرارات تعصر القلوب وتستقطر الجفون.

ومن قصيدة طويلة وجّهها إلى خصمه الفرزدق هاجياً، افتتحها برثاء امرأته، فقال:

رثاء امرأته

لَـوْلَا ٱلْـحَيَـاءُ، لَـعَـادَنِي ٱسْـتِـعْـبَـارُ،
وَلَـزُرْتُ بَـيْـتَـكِ، وَٱلْـحَـبِـيـبُ يُـزَارُ(١)

وَلَـقَـدْ نَـظَرْتُ، وَمَـا تَـمَـتُّـعُ نَـظْرَةٍ
فِي ٱللَّحْـدِ حَيْثُ تَـمَكَّـنَ ٱلْمِحْـفَـارُ(٢)

وَلَّـهْـتِ قَـلْـبِي، إِذْ عَـلَتْنِـي كَـبْـرَةٌ،
وَذَوُو ٱلـتَّـمَـائِـمِ مِنْ بَـنِيـكِ صِـغَـارُ(٣)

أَرْعَى ٱلنُّجُـومَ، وَقَـدْ مَضَتْ غَـوْرِيَّـةٌ،
عُـصَـبُ ٱلـنُّـجُـومِ كَـأَنَّـهُـنَّ صُـوَارُ(٤)

نِـعْمَ ٱلْـقَـرِيـنُ، وَكُـنْـتِ عِـلْقَ مَـضَـنَّـةٍ
وَأَرَى بِـنَـعْـفِ بُـلَـيَّـةَ ٱلأَحْـجَـارُ(٥)

عَـمَـرَتْ مُكَـرَّمَـةَ ٱلْـمَسَـاكِ وَفَـارَقَـتْ
مَـا مَـسَّـهَـا صَـلَفٌ وَلَا إِقْـتَـارُ(٦)

---

(١) استعبار: بكاء. بيتك: قبرك.
(٢) المحفار: آلة الحفر.
(٣) ولهة: حزينة أشدّ الحزن. التمائم ج تميمة وهي خرزة أو عوذة تُعلّق في عنق الولد د للأخطار.
(٤) الغورية: التي تأخذ الغور للغروب والسقوط. العصب: الجماعات. الصوار: قطيع الوحش.
(٥) العلق: النفيس من كل شيء. المضنة: ما يضن به. النعف: أسفل الجبل وأعلى الواد: بلية: اسم موضع.
(٦) الصلف: الكبرياء. الاقتار: العسر.

فَسَقَى صَدَى جَدَثٍ، بِبُـرْقَـةِ ضَـاحِـكٍ
هَـزِمٌ أَجَشٌّ، وَدِيـمَـةٌ مِـدْرَارُ[1]
هـزِمٌ أَجَشٌّ، إِذَا آسْـتَـحَـارَ بِـبَـلْدَةٍ
فَـكَـأَنَّـمَـا بِـجِـوَائِـهَـا ٱلأَنْـهَـارُ[2]
مُـتَـرَاكِـمٌ زَجِـلٌ يُـضِـيءُ وَمِـيـضُـهُ
كَـٱلْبُلْقِ تَـحْـتَ بُـطُونِـهَـا ٱلأَمْـهَـارُ[3]
كَـانَـتْ مُكَـرَّمَـةَ ٱلْعَشِيـرِ وَلَـمْ يَكُـنْ
يَـخْـشَـى غَـوَائِـلَ أُمِّ حَـزْرَةَ جَـارُ[4]
وَلَـقَـدْ أَرَاكِ كُسِـيـتِ أَجْـمَـلَ مَـنْـظَرٍ،
وَمَـعَ ٱلْـجَـمَـالِ سَـكِـيـنَـةٌ وَوَقَـارُ
وَٱلـرِّيـحُ طَـيِّـبَـةٌ إِذَا آسْـتَـقْـبَـلْتِـهَـا
وَٱلْـعِـرْضُ لَا دَنِسٌ وَلَا خَـوَّارُ[5]
وَإِذَا سَـرَيْـتُ، رَأَيْـتُ نَـارَكِ نَـوَّرَتْ
وَجْـهـاً أَغَـرَّ، يَـزِيـنُـهُ ٱلإِسْـفَـارُ
صَلَّى ٱلْـمَـلَائِكَـةُ ٱلَّـذِيـنَ تُـخُـيِّـرُوا
وَٱلـصَّـالِـحُـونَ عَـلَيْـكِ، وَٱلأَبْـرَارُ

---

(١) الصدى: كان العرب يعتقدون بانه يخرج من رأس القتيل طير يسمونه «صدى» يظل عطشان يصيح «اسقوني» حتى يؤخذ بثأره. الهزم: السحاب الراعد. الأجش: الغليظ الصوت من الرعد. برقة ضاحك: اسم موضع.
(٢) الجواء ج جو وهو الناحية والجهة.
(٣) زجل: ذو جلبة، البلق ج أبلق وهو ما كان في لونه سواد وبياض.
(٤) الغوائل: المصائب.
(٥) الخوار: الضعيف.

وَعَلَيْكِ مِنْ صَلَوَاتِ رَبِّكِ كُلَّمَا
نَصِبَ ٱلْحَجِيجُ مُلَبِّدِينَ، وَغَارُوا(١)
يَا نَظْرَةً لَكِ، يَوْمَ هَاجَتْ عَبْرَةً
مِنْ أُمِّ حَزْرَةَ، بِٱلنُّمَيْرَةِ دَارُ
تُحْيِي ٱلرَّوَامِسُ رَبْعَهَا، فَتُجِدُّهُ
بَعْدَ ٱلْبِلَى، وَتُمِيتُهُ ٱلأَمْطَارُ(٢)
وَكَأَنَّ مَنْزِلَةً لَهَا، بِحُلاَحِلٍ
وَحْيُ ٱلزُّبُورِ تُجِدُّهُ ٱلأَحْبَارُ(٣)
لاَ تُكْثِرَنَّ، إِذَا جَعَلْتَ تَلُومُنِي،
لاَ يَذْهَبَنَّ بِحِلْمِكَ ٱلإِكْثَارُ
كَانَ ٱلْخَلِيطُ هُمُ ٱلْخَلِيطُ، فَأَصْبَحُوا
مُتَبَدِّلِينَ، وَبِٱلدِّيَارِ دِيَارُ
لاَ يَلْبَثُ ٱلْقُرَنَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا
لَيْلٌ يَكُرُّ عَلَيْهِمِ وَنَهَارُ!

رثاء ابنه

[وقال يرثي ابنه سوادة وقد توفي بالشام]:

قَالُوا: نَصِيبُكَ مِنْ أَجْرٍ فَقُلْتُ لَهُمْ
مَنْ لِلْعَرِينِ، إِذَا فَارَقْتُ أَشْبَالِي؟

---

(١) نصب: تعب. الحجيج ج حاج. ملبدين: مقيمين. غار الرجل: نام.
(٢) الروامس: الرياح.
(٣) الزبور: المزامير. تجده: تكتبه فتحكمه.

لَـكِـنْ سَــوَادَةُ يَـجْـلُو مُـقْـلَتَـيْ لَـحِـمٍ
بَـازٍ، يُصَـرْصِـرُ فَـوْقَ ٱلْمَـرْقَبِ ٱلْعَـالِي[1]
قَــدْ كُـنْـتُ أَعْــرِفُــهُ مِـنِّـي، إِذَا غَـلِـقَـتْ
رُهْنُ ٱلْجِيَــادِ، وَمَـدَّ ٱلْغَـايَـةَ ٱلْغَــالِي[2]
إِلَّا تَـكُـنْ لَـكَ بِـٱلـدَّيْـرَيْـنِ بَـاكِـيَـةٌ
فَــرُبَّ بَـاكِـيَـةٍ بِـٱلـرَّمْـلِ مِـعْـوَالِ
كَـأُمِّ بَـوٍّ عَـجُـولٍ، عِـنْـدَ مَـعْـهَـدِهِ،
حَـنَّـتْ إِلَـى جَـلَدٍ مِـنْـهُ وَأَوْصَـالِ[3]
تَرْتَاعُ مَـا نَسِيَتْ، حَتَّى إِذَا ذَكَـرَتْ، رَدَّتْ
هَمَـاهِمَ، حَـرَّى ٱلْجَـوْفِ، مِثْكَـالِ[4]
زِدْنَـا عَلَى وَجْـدِهَـا وَجْـداً، وَإِنْ رَجَعَتْ،
فِي ٱلْقَلْبِ مِنْهَـا خُـطُوبٌ ذَاتُ بَلْبَـالِ[5]
فَـارَقْتِنِي، حِينَ كَفَّ ٱلدَّهْـرُ مِنْ بَصَـرِي،
وَحِينَ صِـرْتُ كَعَـظْمِ ٱلـرِّمَّـةِ ٱلْبَـالِي[6]
إِنَّ ٱلثَّـوِيَّ بِـذِي ٱلـزَّيْتُـونِ، فَـٱحْتَسِبِي،
قَـدْ أَسْرَعَ ٱلْيَـوْمَ فِي عَقْلِي وَفِي حَـالِي[7]

---

(١) باز لحم: يأكل اللحم أو يشتهيه. صرصر البازي: صات. المرقب: الموضع المشرف يعلوه الرقيب.
(٢) غلق الرهن: صار ملك المرتهن.
(٣) البو: ولد الناقة، إذا مات يحشى جلده تبناً فيقرب من أمه، فتخدع وتعطف عليه وتدرّ. الجلد بفتح الجيم واللام: الجلد بكسر الجيم وسكون اللام.
(٤) الهماهم: الأصوات مع بحّة. المثكال: الكثيرة الثكل.
(٥) البلبال: الهم والوسوسة.
(٦) الرمة: ما بلي من العظام.
(٧) الثوي: الميت.

في رثاء معن بن زائدة

كان معن بن زائدة (. . . ـ ١٥١ هـ/ ٧٦٨ م) من أشهر أجواد العرب، وأحد الشجعان الفصحاء، والولاة المشهورين. عندما توفِّي رثاه عدد من الشعراء من بينهم مروان بن أبي حفصة، والحسين بن مطير. قال ابن أبي حفصة في رثائه:

مَضَى لِسَبِيلِهِ مَعْنٌ وَأَبْقَى
مَكَارِمَ لَنْ تَبِيدَ وَلَنْ تُنَالا
كَأَنَّ آلشَّمْسَ يَوْمَ أُصِيبَ مَعْنٌ
مِنَ الإظْلامِ مُلْبَسَةٌ ظِلالا
هُوَ آلْجَبَلُ الذي كانَتْ نِزارٌ
تَهُدُّ مِنَ آلْعَدُوِّ بِهِ الجِبَالا
وَعُطِّلَتِ الثُّغُورُ لِفَقْدِ مَعْنٍ
وَقَدْ يَرْوِي بها الأَسَلَ النِّهالا[1]
وَأَظْلَمَتِ العِراقُ وأَوْرَثَتْها
مُصِيبَتُهُ المجلِّلَة آعْتِلالا
وَظَلَّ الشَّامُ يَرْجُفُ جَانِبَاهُ
لِرُكْنِ العِزِّ حِينَ وَهَى فَمَالا
وَكادَتْ مِنْ تُهامَةَ كُلُّ أَرْضٍ
وَمِنْ نَجْدٍ تَزُولُ غَداةَ زالا
فَإِنْ يَعْلُ البِلَادَ لَهُ خُشُوعٌ
فَقَدْ كانَتْ تَطُولُ بِهِ آخْتِيالا

(١) الثغور: الأماكن المحصنّة على الحدود: الأسل النهال. الرماح العطاش.

أصابَ الموتُ يَـوْمَ أصَاب مَعْنـاً
مِـنَ الأحْيـاءِ أكْـرَمَـهُمْ فَـعَـالا
وكــانَ الـنَّــاسُ كُلُّهُـمُ لِـمَـعْـنٍ
إلـى أنْ زارَ حُـفْـرَتَــهُ عِـيَـالا
وَلَمْ يَـكُ طـالبٌ لِلْعُـرْفِ يَنْوِي
إلى غَيْـرِ آبْنِ زائـدَةَ آرْتِحـالا[1]
مَضَى مَنْ كانَ يَحْمِلُ كُـلَّ عِبْءٍ
وَيَسْبِـقُ فَضْــلُ نَـائِلِهِ السُّـؤالا
وَمــا كَـانَتْ تَجِفُّ لَــهُ حِيَــاضٌ
مِنَ المعــروفِ مُتْـرَعَــةٌ سجـالا
مَضَى لِسَبِيلِهِ مَنْ كُنْـتَ تَـرْجُـو
بِــهِ عَثَـراتِ دَهْــرِكَ أنْ تُقــالا
فَلَسْتَ بمــالــكٍ عَبَــراتِ عَيْنٍ
أبَتْ بِــدُمُــوعِهــا إلاّ آنْـهِمَــالا
وَقُلْنَــا أيْنَ نَــرْحَــلُ بَعْــدَ مَعْنٍ
وَقَـدْ ذَهَبَ النَّـوَالُ فَــلا نَـوَالا؟
سَيَـذْكُـرُكَ الخَلِيفَــةُ غَيْـرَ قَــالٍ
إذا هُـوَ في الأُمُورِ بـلا الـرِّجـالا
ولا يَـنْسَــى وَقَــائِعَــكَ الـلَّوَاتِـي
على أعْــدَائِــهِ جُعِـلَتْ وَبَــالا.

---

(١)العرف: العمل الطيّب.

وقال الحسين بن مطير:

أَلِـمَّـا عـلى مَـعْـنٍ وَقُـولا لِـقَـبْـرِهِ
سَقَتْـكَ الغَـوَادِي مَـرْبَعـاً ثُـمَّ مَـرْبَعَـا
فَـيَـا قَبْـرَ مَـعْـنٍ كَـيْفَ وارَيْـتَ جُـودَهُ
وَقَـدْ كَـانَ منـه البَحْـرُ والبَـرُّ مُتْـرَعَـا
وَيَـا قَـبْـرَ مَـعْـنٍ أنْـتَ أَوَّلُ حُـفْـرَةٍ
مِنَ ٱلأَرْضِ خُـطَّتْ للمكـارِمِ مَضْجَعَـا
بَلَى قَـد وَسِعْتَ الجـودَ والـجـودُ مَيِّـتٌ
ولـو كـانَ حَيّـاً ضُقْتَ حتّـى تَصَـدَّعـا
فَتًى عِـيشَ في مَـعْـرُوفِـهِ بَعْـدَ مَـوْتِـهِ
كما كـانَ بَعْـدَ السَّيْـلِ مَجْـرَاهُ مَـرْتَعَـا
ولمّـا مَضَى مَعْنٌ مَضَى الجُـودُ وَٱنْقَضَى
وَأَصْبَـحَ عِـرْنينُ المـكـارم أجْـدَعـا(١)

---

(١) العرنين: الأنف. جدع أنفه: أي أذّله.

من الرثاء في العصر العباسي

أبو تمّام

هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائيّ (١٨٨ هـ/ ٨٠٤ م - ٢٣١ هـ/ ٨٤٦ م) شاعر، وأديب، وأحد أمراء البيان. ولد في جاسم من قرى حوران بسورية، ورحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد، فأجازه، وقدّمه على شعراء وقته، فأقام في العراق، ثمّ ولي بريد الموصل، فلم يتمّ سنتين حتى توفّي بها. في شعره قوّة وجزالة، واختُلف في التفضيل بينه وبين المتنبّي والبحتري.

له ديوان شعر في مختلف الفنون الأدبيّة الغنائيّة التي عرفها العرب. من أشهر مراثيه تلك التي رثا بها محمد بن حميد الطوسيّ، أحد قوّاد جيش المأمون العبّاسيّ. قال فيها:

كَـذَا فَلْيجِلَّ الخَـطْبُ وَلْيَفْـدَحِ الأَمْـرُ
فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَـمْ يَفِضْ مـاؤُهـا عُـذْرُ[1]
تُـوُفِّـيَـتِ الآمـالُ بَـعْـدَ مُـحَـمَّـدٍ
وَأَصْبَحَ في شُغْلٍ عَنِ السَّفَـرِ السَّفْـرُ[2]

(١) يجلّ: يعظم. ويفدح: يثقل ويصعب.
(٢) السفر: قطع المسافة. والسفر المسافرون.

وما كـانَ إلاَّ مـالَ مَـنْ قَـلَّ مـالُـهُ
وَذُخْـراً لِـمَـنْ أَمْـسَـى وَلَـيَس لَـهُ ذُخْـرُ
وَمَـا كـانَ يَـدْرِي مُجْتَـدِي جُـودِ كَفِّـهِ
إذا مـا استهلَّتْ أَنَّـهُ خُلِقَ الـعُـسْـرُ[١]
ألا فـي سبيـلِ ٱللَّهِ مَنْ عَـطَّلَتْ لَـهُ
فِـجـاجُ سبيـلِ ٱللَّهِ وانْـثَغَـرَ الـثَّغْـرُ[٢]
فَـتًى كُـلَّمـا فـاضَتْ عُـيـونُ قَـبـيـلةٍ
دَمـاً ضَحِكَتْ عَنْهُ الأحـاديثُ والـذِّكْـرُ
فـتًى دَهْـرُهُ شَـطرانِ فـيـمـا يَـنُـوبُـهُ
ففي بَـأْسِـهِ شَـطْرٌ وفي جُـودِهِ شَـطْرُ
فتًى مـاتَ بينَ الـطَّعْنِ والضَّـرْبِ مِيتـةً
تَقـومُ مقـامَ النَّصْـرِ إنْ فـاتَـهُ الـنَّصْـرُ
ومـا مـاتَ حتَّى مـاتَ مضـرَبُ سَيْفِـهِ
منَ الضَّـرْبِ واعْتَلَّتْ عليـهِ القَنـا السُّمْرُ
وقـد كـانَ فـوتُ المـوتِ سهـلاً فـردَّهُ
إليـهِ الحفـاظُ المـرُّ والخُلُقُ الـوَعْـر[٣]
وَنَـفْسٌ تَـعـافُ الـعـارَ حَتَّى كـأنَّـمـا
هُـو الكُفْرُ يـومَ الـرَّوعِ أو دُونَـهُ الكُفْـرُ[٤]

---

(١) المجتدي: الطالب الجدوى أي العطيّة.

(٢) الفجاج: جمع فجّ وهو الطريق الواسع.

(٣) الحفاظ: الذبّ عن المحارم، والمواظبة على العمل. والوعر: الصعب.

(٤) تعاف: تكره. والروع: الحرب.

فَـأَثْبَتَ فـي مُسْتَنْقَـعِ المـوتِ رِجْلَهُ
وَقـالَ لهـا مِنْ تَحْتِ أَخْمُصِكِ الحَشْرُ[1]
غَـدا غَـدْوةً والـحَـمْـدُ نَـسْـجُ رِدائِـهِ
فَـلَمْ يَـنْـصَـرِفْ إلاَّ وَأَكْـفَـانُـهُ الأَجْـرُ
تَـردَّى ثِيابَ المـوتِ حُمْـراً فمـا دَجَى
لهـا اللَّيْـلُ إلاَّ وهيَ من سُنـدسٍ خُضْـرُ
كَـأَنَّ بـنـي نَـبـهـانَ يَـومَ وفـاتِـهِ
نُجـومُ سمـاءٍ خَـرَّ من بينهـا البَـدْرُ[2]
يُعـزَّون عـن ثـاوٍ تُـعـزَّى بِـهِ العُـلى
ويَبكي عليـهِ البَـأْسُ والجـودُ والشِّعْـرُ
وَأَنّـى لَـهُـمْ صَـبْـرٌ عَـلَيْـهِ وَقَـدْ مـضـى
إلى المـوتِ حَتَّى اسْتُشْهِـدَا هُـو والصَّبْرُ
فتًى كـانَ عَذْبَ الـروحِ لا من غَضَـاضَـةٍ
ولـكـنَّ كِـبـراً أَنْ يـقـالَ بـهِ كِـبْـرُ
فتًى سَلَبَتْـهُ الـخيـلُ وَهـو حِمًى لـهـا
وبـزَّتْـه نـارُ الحَـرْبِ وَهْـوَ لهـا جَمْـرُ[3]
وَقَـدْ كـانَتِ البيضُ المـآثيـرُ في الـوَغَى
بـواتـرَ فـهـي الآنَ مـن بَـعْـدِهِ بُـتْـرُ[4]

---

(١) الأخمص: ما لا يصيب الأرض من باطن القدم.
(٢) خرَّ: سقط.
(٣) بزت: سلبتهُ.
(٤) المآثير: السيوف التي في متونها أثرٌ. والبواتر: القواطع. والبتر: المقطوعة.

أمِنْ بَعْدِ طَيِّ الحادِثاتِ مُحَمَّداً
يَكونُ لأثوابِ النَّدَى أبَداً نَشْرُ
إذا شَجَراتُ العُرْفِ جُذَّتْ أصولُها
ففي أيِّ فرعٍ يُوجدُ الورقُ النَّضْرُ[1]
لَئِنْ أُبْغِضَ الدَّهْرُ الخَؤُونُ لفقدِهِ
لَعَهْدِي بِه مِمَّنْ يُحَبُّ لَهُ الدَّهْرُ
لَئِنْ غَدَرَتْ في الرَّوعِ أيَّامُهُ بِهِ
فما زالتِ الأيَّامُ شيمَتُها الغَدْرُ[2]
لَئِنْ أُلْبِسَتْ فيهِ المصيبةَ طَيِّئٌ
فما عَريتْ منها تميمٌ ولا بكْرُ
كذلِكَ ما نَنْفَكُّ نَفْقُدُ هالِكاً
يشارِكُنا في فَقْدِهِ البدوُ والحضْرُ
سَقَى الغيثُ غيثاً وَارَتِ الأرضُ شَخْصَهُ
وإنْ لَمْ يَكُنْ فيهِ سَحابٌ ولا قَطْرُ[3]
وَكَيْفَ احتمالي للغُيوثِ صَنيعَةً
بإسْقائِها قَبْراً وفي لَحْدِهِ البَحْرُ
مَضَى طاهِرَ الأثْوَابِ لم تَبْقَ رَوْضَةٌ
غداةَ ثَوَى إلاَّ اشْتَهَتْ أنَّها قَبْرُ[4]

---

(١) جذت: قطعت.
(٢) الشيمة: العادة والطبيعة.
(٣) وارت: أخفت.
(٤) ثوى: مات.

ثَـوَى في الثَّرى من كـانَ يَحْيـا بِـهِ الثَّـرَى
وَيْغَمُـرُ صرفَ الـدهـر نـائلُهُ الغَمْـرُ[1]
عـليـكَ سـلامُ آلـلَّهِ وَقْـفـاً فـإنَّنِـي
رَأَيـتُ الكَـريـمَ الحُـرَّ لَـيْسَ لَـهُ عُمْـرُ

وقال يرثي أخاه:

إنّـي أَظُـنّ الـبِلَى لـو كـانَ يَفْـهَـمُـه
صَـدَّ البِلَى عَنْ بَقَـايَـا وَجْهِـهِ الحَـسَنِ
يـا يَـوْمَـهُ لـم تَـدَعْ حُسْنـاً ولا أَدَبـاً
إلاّ حَـكَـمْـتَ بِـهِ لِلَّحْـدِ وَالـكَـفَـنِ
لِـلَّهِ مُـقْـلَتُـهُ! والـمـوتُ يَـكْـسِـرُهـا
كَـأَنَّ أَجْفَـانَـهُ سَكْـرَى مِنَ الـوَسَنِ
يَـرُدُّ أَنْـفَـاسَـهُ كَـرْهـاً وَتَـعْـطِفُـهـا
يَـدُ المَنِيَّـةِ عَـطْفَ الـرِّيـحِ لِلْغُـصُنِ
يـا هَـوْلَ مـا أَبْصَـرَتْ عَيني ومـا سَمِعَتْ
أُذْنـي فـلا أَبْـصَـرَتْ عَـيْـنـي ولا أُذُنـي
لَـمْ يَبْـقَ مِنْ بَـدَنـي جُـزْءٌ عَـلِمْـتُ بِـهِ
إلاّ وَقَـدْ حَـلَّهُ جُـزْءٌ مِـنَ آلْـحَـزَنِ
كـانَ الـلَّحـاقُ بِـهِ أَهْنـا وَأَحْـسَنَ بـي
مِنْ أَنْ أَعيشَ سَقيمَ الـرّوحِ والبَـدَنِ.

---

(١) الغمر: الكثير.

ابن الروميّ

هـو أبـو الحسن عليّ بن العبّـاس بن جُـريـج (٢٢١ هـ/ ٨٣٥ م - ٢٨٣ هـ/ ٨٩٦ م). ولد في بغداد من أب روميّ، وأمّ فارسيَّة. أكبّ على تحصيل العلم حتّى استقامت له ثقافة واسعة من لغة وأدب وفلسفة ودين. توالت المِحَن عليه، فمات والده وهو حَدَث، ومات أخوه في شبابه، ومات أبناؤه الثلاثة، وماتت زوجته، والتهبت النيران بعض أملاكه، واغتصب الظلم البعض الآخر.

له ديوان ضخم من الشعر عالج فيه جميع الموضوعات الشائعة عند العرب. وفي الرثاء يندفق ابن الروميّ اندفاقاً لأنَّه يرثي من يحبّ، ويرثي في حالة من الانفعال شديدة، وفي حالة من الحزن المتجمّع المتراكم شديدة أيضاً. وكان يخاطب الميت في لهفة المحبّة ولوعة الفراق، ويسكب نفسه عليه حسرة، ويُفصِّل ما يعانيه من شقاء بعد فراقه، فيذكر آلامه، ووحشته، وسهرة في ظلمات الليالي، ودموعه المتساقطة في غزارة وحـرارة، ويذكـر كيف مات الفقيد، وكيف زالت بالموت صفاته، فيتحسّر عليها تحسّراً يكسر القلب، وقد يخاطب تلك الصفات، ويذرف عليها العبرات، والـذي يقرأ شعره يحزن للشاعر وسوء حاله أكثر مِمّا يحزن للفقيد.

رثاء ابنه الثالث

أَبُـنَـيَّ! إِنَّكَ وَٱلْعَزَاءَ، مَعـاً،
بِـالأَمْسِ لُـفَّ عَلَيْكُمَـا كَفَنُ
تَـاللَّهِ، لاَ تَنْفَـكُّ لِي شَجَنـاً،
يَمْضِي ٱلـزَّمَانُ، وَأَنْتَ لِي شَجَنُ
مَـا أَصْبَحَتْ دُنْيَايَ لِي وَطَنـاً،
بَـلْ حَيْثُ دَارُكَ، عِنْدِيَ ٱلْـوَطَنُ
مَا فِي ٱلنَّهَارِ، وَقَدْ فَقَدْتُـكَ، مِنْ
أُنْسٍ، وَلاَ فِي ٱللَّيْلِ لِي سَكَنُ(١)
وَلَـقَـدْ تُسَلِّي ٱلْقَـلْبَ ذُكْـرَتُـهُ
أَنِّي بِـأَنْ أَلْقَـاكَ مُـرْتَـهَـنُ(٢)
أَوْلاَدَنَـا! أَنْـتُـمْ لَـنَـا فِتَـنٌ!
وَتُفَـارِقُـون، فَـأَنْتُمْ مِحَـنُ!(٣)

رثاء ولده الأوسط

بُكَـاؤُكُمَـا يَشْفِي، وَإِنْ كَـانَ لاَ يُجْـدِي،
فَجُـودَا، فَقَـدْ أَوْدَى نَـظِيرُكُمَـا عِنْـدِي(٤)
أَلاَ قَـاتَـلَ ٱلـلَّهُ ٱلْـمَـنَـايَـا وَرَمْـيَـهَـا،
مِنَ ٱلْقَـوْمِ، حَبَّـاتِ ٱلْقُلُوبِ، عَلَى عَمْـدِ

---

(١) السكن: الاستئناس.

(٢) ذكرته: أي تذكر القلب. مرتهن: مقيد.

(٣) الفتن: موضوع إعجاب وحب شديد يبلغ الجنون.

(٤) بكاؤكما: خطاب لعينيه.

تَـوَخَّى حَمَـامُ ٱلْمَـوْتِ أَوْسَطَ صِبْيَتِي،
فَـلِلَّهِ، كَيْـفَ ٱخْتَـارَ وَاسِـطَةَ ٱلْـعِقْـدِ[1]
عَلَى حِينَ شِمْتُ ٱلْخَيْـرَ مِنْ لَمَحَـاتِـهِ،
وَآنَـسْتُ مِنْ أَفْعَـالِـهِ آيَـةَ ٱلـرُّشْـدِ[2]
طَـوَاهُ ٱلـرَّدَى عَـنِّي، فَـأَضْحَى مَـزَارُهُ
بَعِيـداً عَلَى قُـرْبٍ، قَـرِيبـاً عَلَى بُعْـدِ
لَقَـدْ أَنْجَزَتْ فِيـهِ ٱلْمَنَـايَـا وَعِيـدَهَـا،
وَأَخْـلَفَـتِ ٱلآمَـالُ مَـا كَـانَ مِنْ وَعْـدِ
لَقَـدْ قَـلَّ بَيْنَ ٱلْمَهْـدِ وَٱللَّحْـدِ لُبْثُـهُ،
فَلَمْ يَنْسَ عَهْدَ ٱلْمَهْدِ، إِذْ ضُمَّ فِي ٱللَّحْـدِ
أَلَـحَّ عَـلَيْـهِ ٱلـنَّـزْفُ، حَتَّـى أَحَـالَـهُ
إِلَى صُفْـرَةِ ٱلْجَادِيِّ عَنْ حُمْـرَةِ ٱلْـوَرْدِ[3]
وَظَـلَّ عَـلَى ٱلأَيْـدِي تَسَـاقَطُ نَـفْسُـهُ،
وَيَذْوِي كَمَا يَذْوِي ٱلْقَضِيبُ مِنَ ٱلرَّنْـدِ[4]
فَـيَـا لَـكَ مِنْ نَـفْسٍ تَسَـاقَطُ أَنْـفُسـاً
تَـسَـاقُطَ دُرٍّ مِـنْ نِـظَامٍ بِـلاَ عَـقْـدِ
عَـجِبْتُ لِقَـلْبِي كَـيْفَ لَـمْ يَـنْفَـطِرْ لَـهُ
وَلَـوْ أَنَّـهُ أَقْسَى مِنَ ٱلْحَجَـرِ ٱلصَّـلْدِ[5]

---

(١) واسطة العقد: الجوهرة التي في وسطه.
(٢) شمت: رأيت. آنست: نظرت. الآية: العلامة.
(٣) الجادي: الزعفران.
(٤) يذوي: يذبل. الرند: شجر طيب الرائحة.
(٥) ينفطر: ينشق. الصلد: الصلب.

وَمَـا سَـرَّنِـي أَنْ بِـعْـتُـهُ بِـثَـوَابِـهِ
وَلَـوْ أَنَّـهُ آلـتَّـخْـلِيـدُ فِي جَنَّـةِ آلْـخُـلْدِ
وَلَا بِعْتُـهُ طَـوْعـاً وَلَـكِـنْ غُـصِبْـتُـهُ
وَلَيْسَ عَلَى ظُلْمِ آلْحَـوَادِثِ مِنْ مُعْـدِ[1]
وَإِنِّـي وَإِنْ مُـتِّـعْـتُ بِـآبْـنَـيَّ بَـعْـدَهُ
لَـذَاكِـرُهُ مَـا حَنَّتِ آلنِّيبُ فِي نَـجْـدِ[2]
وَأَوْلَادُنَـا مِـثْـلُ آلْـجَـوَارِحِ أَيُّـهَـا
فَقَـدْنَـاهُ كَـانَ آلْفَـاجِـعَ آلْبَيِّنَ آلْفَـقْـدِ
لِـكُـلٍّ مَـكَـانٌ لَا يَـسُـدُّ آخْـتِـلَالَـهُ
مَـكَـانُ أَخِيـهِ مِـنْ جَـزُوعٍ وَلَا جَـلْدِ[3]
هَـلِ العَيْنُ بَعْدَ آلسَّمْـعِ تَكْفِي مَكَـانَـهُ
أَمِ آلسَّمْعِ بَعْدَ آلْعَيْنِ يَهْـدِي كَمَا تَهْـدِي
لَعَمْـرِي لَقَدْ حَـالَتْ بِيَ آلْحَـالُ بَعْـدَهُ فَيَا
لَيْتَ شِعْـرِي كَيْفَ حَـالَتْ بِـهِ بَـعْـدِي
ثَـكِـلْتُ سُـرُورِي كُـلَّهُ إِذْ ثَـكِـلْتُـهُ
وَأَصْبَحْتُ فِي لَـذَّاتِ عَيْشِي أَخَـا زُهْـدِ[4]
أَرَيْـحَـانَـةَ آلْعَـيْـنَيْنِ وَآلْأَنْـفِ وَآلْـحَشَـا
أَلَا لَيْتَ شِعْـرِي هَـلْ تَغَيَّـرْتَ عَنْ عَهْـدِي

(١) المعدي : المعين.
(٢) النيب: ج ناب وهي الناقة المسنة.
(٣) الجزوع : الفاقد الصبر.
(٤) ثكلت : فقدت.

سَـأَسْقِيكَ مَـاءَ ٱلْعَيْنِ مَا أَسْعَـدَتْ بِـهِ
وَإِنْ كَـانَتِ ٱلسُّقْيَا مِنَ ٱلْعَيْنِ لاَ تُجْدِي[1]
أَعَيْنَيَّ جُـودَا لِي فَقَـدْ جُـدْتُ لِلثَّـرَى
بِـأَنْفَسَ مِمَّـا تَسَـأَلاَنِ مِنَ ٱلـرِّفْـدِ[2]
كَـأَنِّيَ مَـا ٱسْتَمْتَعْتُ مِنْـكَ بِضَمَّـةٍ
وَلاَ شَـمَّـةٍ فِي مَلْعَـبٍ لَـكَ أَوْ مَـهْـدِ
أَلاَمُ لِـمَـا أُبْـدِي عَـلَيْـكَ مِـنَ ٱلأَسَى
وَإِنِّي لأُخْفِي مِنْـكَ أَضْعَافَ مَـا أُبْـدِي
مُـحَـمَّـدُ، مَـا شَـيْءٌ تُـوُهِّـمَ سَـلْوَةً
لِـقَلْبِـيَ إِلاَّ زَادَ قَلْبِـي مِـنَ ٱلْـوَجْـدِ
أَرَى أَخَـوَيْـكَ ٱلْـبَـاقِيَـيْـنِ كِلَيْـهِـمَـا
يَكُـونَـانِ لَـلأَحْـزَانِ أَوْرَى مِنَ ٱلـزَّنْـدِ[3]
إِذَا لَـعِـبَـا فِـي مَلْعَـبٍ لَـكَ لَـذَّعَـا
فُـؤَادِيَ بِمِثْـلِ ٱلنَّـارِ عَنْ غَيْـرِ مَـا قَصْـدِ
فَـمَـا فِيـهِـمَـا لِي سَلْوَةٌ بَـلْ حَـرَارَةٌ
يَهِيجَـانِهَـا دُونِي وَأَشْقَـى بِهَـا وَحْـدِي
وَأَنْـتَ وَإِنْ أُفْـرِدْتَ فِـي دَارِ وَحْـشَـةٍ
فَـإِنِّي بِـدَارِ الأُنْسِ فِي وَحْـشَـةِ ٱلْفَـرْدِ
عَـلَيْـكَ سَـلاَمُ ٱللَّهِ مِـنِّي تَـحِيَّـةً وَمِـنْ
كُـلِّ غَيْثٍ صَـادِقِ ٱلْبَـرْقِ وَٱلـرَّعْـدِ

(١) أسعدت بالدمع: ساعدت.
(٢) الرفد: الجود والعطاء.
(٣) أورى: أكثر إيقاداً وإشعالاً. الزند: حديدة من فولاذ تضرب بحجر صوان فينقدح النار.

الشريف الرّضيّ

هو أبو الحسن محمد بن الحسين (٣٥٩ هـ/ ٩٧٠ م - ٤٠٦ هـ/ ١٠١٦ م). ولد في بغداد من أصل شريف يرتقي إلى الحسين بن علي بن أبي طالب. كان يطمح إلى الخلافة، ويُطمعه فيها الكاتب المشهور أبو إسحاق الصابيّ. تولّى إمارة الحجّ، وشهد مواسم العيد، وفيها النساء الوافدات من جميع البلدان. فحرّك المشهد أوتار قلبه، فنظم قصائد شهيرة في الغزل العفيف عُرفت بالحجازيّات.

ومات الصابي سنة ٣٨٤، هـ وكان رئيس الكتّاب في ديوان الخلافة العبّاسية، وأحد المشهود لهم بحسن الرأي وبلاغة الإنشاء. فرثاه الشريف الرضي بهذه القصيدة العامرة، وهي أكثر من ثمانين بيتاً، نثبت منها ما يلي:

أَعَلِمتَ مَنْ حُملوا على الأَعْوادِ
أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبا ضِياءُ النّادي

جَبَلٌ هَوَى لَوْ خَرَّ فِي البَحْرِ اغْتَدَى
مِنْ وَقْعِهِ مُتَتَابِعَ الإِزْبادِ

ما كُنْتُ أَعْلَمُ قَبْلَ دَفْنِكَ في الثّرى
أَنَّ الثَّرَى يَعْلُو على الأَطْوادِ

بُعْـداً لِيَوْمِـكَ في الـزَّمـانِ فَـإِنَّـهُ
أَقْذَى العُيونَ وَفَتَّ في الأَعْضَادِ[1]
لا يَنْفَـدُ الدَّمْـعُ الـذي يُبْكِى بِـهِ
إِنَّ الـقُـلوبَ لَـهُ مِـنَ الأَمْـدَادِ
أَعْـزِزْ عليَّ بأَنْ يفـارِقَ نـاظـرِي
لَمَعــانُ ذاكَ الكـوكَبِ الـوَقَّــادِ
أَعْـزِزْ عليَّ بـأَنْ نَـزلْتَ بِمَنْـزِلٍ
مُتَشــابِـهِ الأَمجــادِ وَالأَوْغَــادِ[2]
مَنْ للبـلاغَةِ والفصـاحَةِ إِنْ هَمَى
ذاكَ الغمامُ وَعَبَّ ذاكَ الوادي[3]
مَنْ للممــالـكِ لا يـزالُ يلمُّهـا
بِسِــدادِ أَمْـرٍ ضــائِـعٍ وسِــدادِ
إِنَّ الـدُّمـوعَ عَلَيـكَ غَيْـرُ بَخيلةٍ
وَالقَلْبُ بــالسُّلْوانِ غَيْــرُ جَـوادِ
سَوَّدْتَ ما بَيْنَ الفضـاءِ وناظـري
وَغَسَلْتَ مِنْ عَيْنَيَّ كُـلَّ سوادِ[4]
ماذا الذي حَبَسَ الجوادَ عَنِ المدى
مِنْ بَعْــدِ سَبْقَـتِـهِ إلى الآمــادِ

(١) فت في عضده: أضعفه.
(٢) أي القبر الذي لا فرق فيه بين الأمجاد والأوغاد.
(٣) إذا سال غمام الفصاحة وطغى واديها.
(٤) أي من كثرة البكاء.

مـاذا الذي فَجَـعَ الهمـامَ بـوَثْبَـةٍ
وعـدا على دَمِهِ وكـان العادي[1]
يـا لَيْتَ أنِّي ما اقْتَنَيْتُـكَ صاحباً
كَمْ قِنْيَـةٍ جَلَبَـتْ أسًى لِـفُؤادِي
بَــرْدُ القلوبِ بمَنْ تُحِبُّ لِقــاءَهُ
مِمَّـــا يَجـرُّ حــرارَةَ الأكْبــادِ[2]
لا تـطلبي يـا نفسُ خــلّاً بَعْـدَهُ
فَـلَمِثْـلُهُ أعيـا عـلى الـمـرتـادِ
إنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ أُسرتِي وَعَشِيرتي
فَــلأَنْتَ أعْلَقُـهُمْ يَـداً بــودادي
ضاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بَعْدَكَ كُلُّهَـا
وَتَــرَكْتَ أضيقَهــا عَلَيَّ بــلادي
لَـكَ في الحشا قبـرٌ وإنْ لَمْ تَأْوِهِ
وَمِنَ الـدّمـوعِ رَوائِـحٌ وغـوادي
ما ماتَ مَنْ جَعَلَ الزمـانَ لِسانَـهُ
يَتْلو منــاقِبَ عــوْداً وبــوادي[3]
فـاذْهَبْ كما ذَهَبَ الـربيعُ وَإثْـرُهُ
بــاقٍ بكُــلِّ خَمَــائِـلٍ وَنِجــادِ

---

(١) ما هذا الذي وثب على الهمام وغلبه وقد كان أبداً هو الغالب.
(٢) غبطة القلب بالمحبوب هي سبب الألم والحزن عند فراقه.
(٣) ما مات من يعيد الزمان دائماً ذكرى مناقبه.

وسقـاكَ فَضْلَكَ إِنَّهُ أروى حيـاً
مِنْ رائِـحٍ مُتَعَـرِّسٍ أَوْ غـادِ[1]
جَذَتْ ـ على أَنْ لا نباتَ بِأَرْضِهِ ـ
وَقَـفَتْ عَـلَيْـهِ مـطالِبُ الـرّوّادِ

(١) فضلك أروى من السحاب الرائح والغادي.

أبو العلاء المعرّيّ

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان (٣٦٣ هـ/ ٩٧٣ م - ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م) شاعر فيلسوف. ولد ومات في معرّه النعمان. أصيب بالجدريّ صغيراً، فعمي في السنة الرابعة من عمره، وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. له ديوان شعريّ ضخم، وعدد كبير من المؤلّفات.

من أشهر قصائده تلك التي رثى بها صديقه الفقيه الشاعر أبو الخطاب محمد الجبليّ، قال فيها(*):

غَيرُ مُجْدٍ في ملَّتي واعْتِقَادي
نَوْحُ باكٍ ولا تَرَنُّمُ شادِ
وَشَبيهٌ صوتُ النَّعِيِّ إذا قيسَ
بصَوْتِ البَشيهر في كُلِّ نادِ
أَبَكَتْ تِلْكُمُ الحمامَةُ أمْ
غَنَّتْ على فَرْعِ غُصْنِها المَيّادِ
صاحِ هذي قُبورُنا تَمْتَلأُ الرُّحْبَ
فَأَيْنَ القُبورُ مِنْ عَهْدِ عادِ
خَفِّفِ الوَطْءَ ما أَظُنُّ أَدِيمَ الـ
أَرْضِ إلاّ مِنْ هَذِهِ الأَجْسادِ

(*) في القصيدة عدد من الأبيات المدوّرة.

وَقَبيحٌ بنا وإنْ قَدمَ العَهْدُ
هَوانُ الآباءِ والأَجْدادِ

سِرْ إنِ اسْطَعْتَ في الهواءِ رُويداً
لا اخْتيالاً على رُفات العبادِ

رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صارَ لَحْداً مِراراً
ضاحِكٍ مِنْ تَزاحُمِ الأَضْدادِ

وَدَفِينٍ على بقايا دفينٍ
في طويلِ الأَزمانِ والآبادِ

فاسْأَلِ الفَرْقَدَيْنِ عَمَّنْ أَحَسّا
مِنْ قبيلٍ وآنَسا مِنْ بلادِ(١)

كَمْ أَقامَا على زوالِ نهارٍ
وأَنَارَا لِمُدْلجٍ في سَوادِ

تَعَبٌ كُلُّها الحياةُ فما أَعجَبُ
إلَّا مِنْ راغبٍ في ازديادِ

إنَّ حُزْناً في ساعةِ الموتِ أَضعا
فُ سرورٍ في ساعةِ الميلادِ

خُلِقَ الناسُ للبَقاءِ فَضَلَّتْ
أُمَّةٌ يَحْسَبونَهُمْ للنَّفادِ

إنَّما يُنْقَلونَ مِنْ دارِ أَعما
لٍ إلى دارِ شقوةٍ أَوْ رَشادِ

* * *

(١) اسأل هذين الكوكبين عما عرفاه وشهداه من أحوال الناس.

أبنـاتِ الهـديـلِ أَسْعِـدْنَ أو
عِـدْنَ قليلَ العَـزاءِ بـالإسعـادِ[1]
إيـهِ لـلَّهِ دَرُّكُـنَّ فـأَنْـتُـنَّ الـلـ
ـواتِـي تُـحسِـنَّ حِـفْظَ الـودادِ
ما نَسِيتُنَّ هالكاً في الأوانِ الخالِ
أَوْدَى مِـن قَبْـلِ هُـلْكِ إيـادِ[2]
بَيْـدَ أنّي لا أَرْتَـضي مـا فعلـ
ـتُـنَّ وأطـواقُكُـنَّ في الأَجْيـادِ
فَـتَسـلَّيْنَ واسْـتعَـرْنَ جَـمِـيعـاً
مِنْ قميصِ الـدُّجى ثيابَ حِـدادِ
ثُمَّ غَـرِّدْنَ في المـآتمِ وانْـدُبْنَ
بِشَجْـوٍ مَـعَ الغـواني الخِـرادِ

* * *

قَصَدَ الدَّهْـرُ من أبي حمزةَ الأوّا
بِ مَولى حِجًى وخِدْنَ اقْتصادِ[3]
أنْفَقَ العُمْـرَ نـاسِكـاً يَطْلُبُ العِلْـ
ـمَ بـكشفٍ عن أصله وانتـقـادِ
ذا بـنـانٍ لا تَـلْمسُ الـذَّهَـبَ
الأَحْمَرَ زُهْداً في العَسْجَدِ المُسْتَفَادِ[4]

* * *

(١) بنات الهديل: الحمام. واسعدن أي ساعدن.

(٢) إشارة إلى أن الحمام لا تزال وفية تبكي هديلها الذي هلك سابقاً.

(٣) أي إصابة الدهر وكان صاحب عقل وصلاح.

(٤) العسجد: الذهب.

وَدِّعا أَيُّهَا الحَفِيّانِ ذَاكَ الشَّخْصَ
إنَّ الـــــوَداعَ أَيْــسَــرُ زادِ
وَاغْسِلاَهُ بالدَّمْعِ إنْ كـانَ طُهراً
وَادْفِنـاهُ بيـنَ الحَشَى والـفُـؤادِ
وَاحْبِـواهُ الأَكْفَــانَ مِـنْ وَرَقِ
المُصْحَفِ كبراً عَنْ أَنْفسِ الأَبْرَادِ
وَاتْـلُوَا النعشَ بـالقـراءَةِ والتَّـ
ـسبيـحِ لا بـالنَّحيبِ والتَّعْـدَادِ
أَسَفٌ غَيْـرُ نـافـعٍ واجْـتِهَـادٌ
لا يـؤدِّي إلى غَـنـاءِ اجْـتهـادِ
طـالمـا أَخْـرجَ الحـزينَ جـوَى
الحُـزْنِ إلى غيـرِ لائقٍ بـالسَّـدادِ
مثلمـا فـاتَتِ الصَّـلاةُ سليمـانَ
فَـأَنْحى عـلى رقـابِ الجِيــاد
وَهْوَ مَنْ سُخِّرَتْ لَهُ الإِنْسُ والجِنُّ
بــمـا صَحَّ مِنْ شهـادةِ صادِ(١)

* * *

كَيْفَ أَصْبَحْتَ في مَحَلِّكَ بَعْدي
يـا جَـديـراً مِنِّي بِحُسْنِ افْتِقَـادِ
قَـدْ أَقَـرَّ الـطَّبيبُ عَنْـكَ بِعَجْـزٍ
وَتَـقَـضَّـي تَـرَدُّدُ الـعُـوّادِ

(١) صاد: سورة في القرآن . ويقصد بهذا البيت وما قبله أن الحزن قد يخرج الإنسان عن صوابه كما فعل النبي سليمان من ضرب الخيل لما عرضت عليه فاشتغل بها حتى فاتته الصلاة. وهو الذي شهد له في سورة «ص» إذ قيل ﴿فسخرنا له الريح﴾ الآية.

وَانْتَهى اليأسُ مِنْكَ واسْتَشْعَرَ الوَجْـدُ
بـــأَنْ لا مَـــعَـــادَ حتَّى المعادِ[1]
هَجَـدَ السّـاهِـرونَ حـولَـكَ للتمـ
ـــــريضِ وَيْـحٌ لأَعْيُنِ الهُجَّــادِ
كُـنْتَ خِـلَّ الـصِّبـا فَـلَمَّـاأراد
البيـنَ وافَقْتَ رَأْيَهُ في المُرادِ[2]
وَرَأَيْتَ الـوفـاءَ للصّـاحِبِ الأوَّ
لِ مِنْ شِيمـةِ الكَـريمِ الجـوادِ
وَخَلَعْتَ الـشَّبـابَ غَـضّـاً فَيَـا
لَـيْتَـكَ أَبْـلَيْـتَـهُ مَـعَ الأَنْـدادِ
فـاذْهَبَـا خَيْـرَ ذاهـبيَـن حقيقـ
ـيـن بسَـقْيـا رَوائـحٍ وَغَــوادِ
وَمِــراثٍ لــو أَنَّــهُــنَّ دُمــوعٌ
لَمَحَـوْنَ السُّـطورَ في الإِنْشـادِ

* * *

زُحَــلٌ أَشْــرَفُ الـكَــواكِبِ داراً
مِنْ لِقَـاءِ الـرَّدَى عـلى ميعــادِ
وَلَنارُ المَرِّيخِ مِنْ حَدَثـانِ الدَّهْـرِ
مُـطْفٍ وَإِنْ عَـلَتْ فـي اتِّــقـادِ
والثُّـريّا رَهينـةٌ بـافْتِـراقِ الشَّمْـلِ
حَــتَّــى تُــعَــدَّ فــي الإِفــرادِ

(١) المعاد الثانية يوم القيامة.

(٢) الضمير في «أراد» يرجع إلى الصبا.

كُلُّ بيتٍ للهدْمِ ما تَبْتَني الوَرْقاءُ[1]
والسَّيِّدُ الرَّفيعُ العمادِ

والفتى ظاعِنٌ ويَكْفيهِ ظِلُّ السِّدْرِ
ضربَ الأطنابِ والأَوْتادِ[2]

بانَ أمرُ الإلَهِ واخْتَلَفَ الناسُ
فَداعٍ إلى ضلالٍ وهادِ

والذي حارَتِ البَرِيَّةُ فيهِ
حَيَوانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جمادِ

واللبيبُ اللبيبُ مَنْ لَيسَ يَغْتَرُّ
بِكَوْنٍ مَصيرُهُ للفَسادِ

* * *

(١) الورقاء: الحمامة.

(٢) أي إنَّ الانسان راحل يغنيه ظل السِّدْر (وهو شجر النبق) عن أن يبني المنازل، أي إنه قليل الإقامة في الدنيا فيجب أن لا يهتم بها.

المتنبّي

هو شاعر عصره، بل شاعر العرب جميعاً على مرّ العصور، أحمد بن الحسين بن الحسن (٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م - ٣٥٤ هـ/ ٩٦٥ م). قضى حياته متنقّلاً من أمير إلى آخر، يمدح هذا ويهجو ذاك، لكنّ أكثر إقامته كانت في بلاط سيف الدولة الحمدانيّ في حلب. اشتُهر بالشعر الحكميّ، والمدح، والهجاء، والرّثاء.

وفي رثائه يقف المتنبّي من الموت موقف الحكيم، ويقف من المائت موقف التعظيم والتبجيل، ويقف من آل الفقيد موقف المادح، ويقف من نفسه موقف الذكرى والألم النفسيّ، فرثاؤه «ليس رثاء التفجّع والانهيار والضّعف، ولا رثاء من يبكي ويذرف دموعاً، وإنّما هو رثاء التشاؤم، والتألّم، والتأمّل، ورثاؤه لمن يحبّ هو رثاء الثورة النفسية، والانفجار التشاؤميّ، والصرخات المدوّية التي تهزّ الكيان، وتزعزع الإنسان».

رثاء أمّ سيف الدولة

نُعِدُّ المَشْرَفيَّةَ والعوالي
وَتَقْتُلُنا المَنُونُ بلا قِتالِ(١)

(١) المشرفيّة: السيوف. العوالي: الرماح. المنون: الموت.

وَنَـرْتَـبِطُ السَّـوَابِـقَ مُقْـرَبَـاتٍ
وما يُنْجِينَ مِنْ خَبَبِ اللَّيـالي[1]

وَمَنْ لم يَعْشَقِ الـدُّنيَا قَـدِيمـاً
ولكنْ لا سَبِيـلَ إلى الـوِصَـالِ

نَصِيبُـكَ في حياتِـك من حَبِيبٍ
نَصِيبُـكَ في مَنَـامِكَ مِنْ خَيـالِ

رَمَـانِي الـدَّهـرُ بـالأرْزاءِ حَتّى
فُـؤادِي فـي غِشَـاءٍ من نِبَـالِ

فَصِـرْتُ إذا أصـابَتْني سِهَـامٌ
تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ على النِّصالِ[2]

وَهَـانَ، فَمَـا أُبَـالي بـالـرَّزايا
لأنّي مـا انْتَفَعْـتُ بـأنْ أُبـالي

وهـذا أوّلُ الـنَّـاعِـيـنَ طُـرًّا
لأَوّلِ مَـيْتَـةٍ فـي ذا الـجَـلالِ

كـأنَّ المَـوْتَ لَمْ يَفْجَـعْ بِنَفْسٍ
ولـم يَخْـطُرْ لِـمَخْـلُوقٍ بِبَـالِ

صَـلاَةُ آللـهِ خـالِقِـنَـا حَنُـوطٌ
على الوَجْهِ المكفَّنِ بـالجَمالِ[3]

---

(١) السّوابق: كرام الخيل. المقربات: المدناة من البيوت، إمّا لفرط الحاجة إليها أو للضنّ بها. الخبب: نوع من العدو. يقول: ونرتبط الخيول الكريمة، ومع ذلك لا تنجينا من سعي اللّيالي.

(٢) النصال: ج نصل، وهي الحديدة التي في رأسها السهم.

(٣) يدعو لها بأن تكون رحمة الله عليها كالحنوط للميت.

عَلى المَدْفُونِ قَبْلَ التُّرْبِ صَوْناً
وَقَبْلَ اللَّحْدِ في كَرَمِ الخِلالِ[1]
فإنَّ لـه بِبَطْنِ الأرْضِ شَخْصاً
جَدِيداً ذِكْرُنَاهُ وَهْوَ بَالي[2]
وما أَحَدٌ يُخَلَّدُ في البَرَايَا
بَلِ الدُّنْيَا تَؤُولُ إلى زَوالِ
أطَابَ النَّفْسَ أنَّكِ مُتِّ مَوْتاً
تَمَنَّتْهُ البَواقي وَالخَوَالي
وَزُلْتِ وَلَمْ تَرَيْ يوماً كَريهاً
تُسَرُّ الرُّوحُ فيه بالزَّوَالِ
رِوَاقُ العِزِّ حَوْلَكِ مُسْبَطِرٌّ
وَمُلْكُ عَليٍّ ابْنِكِ في كَمَالِ[3]
سَقَى مَثْوَاكِ غادٍ في الغَوادي
نَظِيرُ نَوالِ كَفِّكِ في النَّوالِ
أُسَائِلُ عَنْكِ بَعْدَكِ كُلَّ مَجْدٍ
وَمَا عَهْدي بِمَجْدٍ عَنْكِ خالي
يَمُرُّ بِقَبْرِكِ العَافِي فَيَبْكِي
وَيَشْغَلُهُ البُكَاءُ عَنِ السُّؤَالِ[4]

---

(١) يقول إنّها كانت مدفونة بالصّون وكَرَم الخلال قبل أن تُدفن في الترب واللحد.
(٢) يقول: إنَّ شخصه وإن كان يبلى في القبر إلّا أنَّ ذكرنا إياه سيبقى أبداً.
(٣) مسبطر: ممتدّ.
(٤) العافي: طالب المعروف.

ومـا أَهْـدَاكِ لِلْجَـدْوَى عَلَيْـهِ
لَـوَ أَنَّـكِ تَقْـدِرينَ على فَعَـالِ
بِعَيْشِـكِ هَـلْ سَلَوْتِ فـإِنَّ قَلْبِي
وَإِنْ جـانَبْتُ أرْضَكِ غَيْـرُ سَـالي
نَـزَلْتِ على الكـراهَـةِ في مَكَـانٍ
بَعُـدْتِ عَنِ النُّعَـامَى والشَّمَـالِ
حَصَـانٌ مِثْـلُ مـاء المُـزْنِ فيـه
كَتُـومُ السِّـرِّ صـادِقَـةُ المَقَـالِ
وَلَيْسَـتْ كـالإنـاثِ ولا اللَّواتـي
تُعَـدُّ لهـا القُبُـورُ مِنَ الحِجَـالِ
ولا مَنْ في جَنَـازَتِهـا تِجَـارٌ
يَكُـونُ وَدَاعُهـا نَفْضَ النِّعـالِ(١)
مَشَى الأُمَـراءُ حَـوْلَيْهـا حُفَـاةً
كـأَنَّ المَـرْوَ مِنْ زِفِّ الـرِّئـالِ(٢)
وأبْـرَزَتِ الـخُـدُورُ مُـخَبَّـآتٍ
يَضَعْنَ النِّقْسَ أمكنـةَ الغـوالي(٣)

---

(١) يقول في هذين البيتين: ليست كالنساء التي يُعَدُّ لها القبر ستراً، فهي مصونة مستورة ولم تكن من نساء السُّوقة يتبع جنازتها تجّار وباعة ينفضون النعال من التراب إذا انصرفوا عن القبر.

(٢) المرو: حجارة الصوّان: زِفّ: صغار الريش. الرئال: ولد النعام.

(٣) النقس: هنا السواد. الغوالي: ج غالية وهي نوع من الطيب. يقول: خرجَتْ لموتها نساء كُنَّ مُخَبّآت.

وَلَـوْ كَـانَ النِّسَــاءُ كَمَنْ فَقَـدْنَـا

لَفُضِّلَتِ النِّسَـاءُ على الـرِّجَـالِ

وما التأْنِيثُ لإسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ

ولا التَّــذْكيـرُ فَـخْـرٌ لِلْهِــلالِ

وَأفْجَـعُ مَنْ فَقَـدْنَـا مَنْ وَجَـدْنَـا

قُبَيْــلَ الفَقْــدِ مَفْقُــودَ الـمِثَـالِ

يُـــدَفِّنُ بَعْضُنــا بَعْضــاً وَتَمْشِـي

أَواخِــرُنــا عــلى هَــامِ الأوَالِـي

وكَـمْ عَـيْـنٍ مُـقَـبَّـلَةِ النَّــواحـي

كَحِيـلٍ بـالجنـادِلِ والـرِّمَـالِ(١)

وَمُغْضٍ كـانَ لا يُغْضِي لِخَـطْبٍ

وَبَــالٍ كـان يُفَكِّــرُ في الهـزالِ

أَسَيْفَ الــدَّوْلَـةِ اسْتَنْجِـدْ بِصَبْرٍ

وكيف بِمِثْــلِ صَبْــرِكَ للجبــال

فــأنْتَ تُعَـلِّمُ النَّــاسَ التَّعَــزِّي

وَخَوْضَ المَوْتِ في الحَرْبِ السِّجالِ

وَحَــالاتُ الـزَّمَــانِ عَلَيْـكَ شَتَّى

وَحَـالُـكَ واحِـدٌ في كُـلِّ حــالِ

فـلا غِيضَتْ بِحَـارُكَ يـا جمـوماً

على عِلَلِ الغرائِبِ والدِّخـالِ(٢)

---

(١) الجنادل: ج جندلة وهي الحجارة. يقول: كم عين كانت عزيزة، فصارت تحت الأرض مكحولة بالرمل والحجارة.

(٢) غيضت: نقصت. الجموم: الكثير. علل: الشرب الثاني أو تباعاً. الغرائب: ج غريبة وهي التي ترد إلى الحوض. الدّخال: أن يدخل بعير قد شرب بين بعيرين لم يشربا. يقول: لا =

رَأَيْتُـكَ في الّـذين أَرَى مُلوكـاً
كـأنّـكَ مُسْتَقِيمٌ في مُحَـالِ[1]
فــإنْ تَـفُقِ الأنَـامَ وأنْـتَ مِنْـهُمْ
فإنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغزالِ[2]

* * *

وقال يرثي أبا شجاع فاتكاً، وقد توفي بمصرَ سنة خمسين وثلاثمائة، وكانت هذه المرثية بعد خروجه من مصر:

الْحُـزْنُ يُقْلِقُ وَالتَّجَمُّـلُ يَـرْدَعُ
وَالـدَّمْـعُ بَيْنَهُمَـا عَصِيٌّ طَيِّـعُ[3]
يَتَنَـازَعَـانِ دُمُـوعَ عَيْنِ مُسَهَّـدٍ
هَـذَا يَجِيءُ بِهَا وَهَـذَا يَرْجِـعُ[4]
اَلنَّـوْمُ بَعْـدَ أبي شُجَـاعٍ نـافِـرٌ
وَاللَّيْـلُ مُعْيٍ وَٱلْكَوَاكِبُ ظُلَّعُ[5]

= نَقَضتُ بحارُك يا بحراً كثير الماء وإن وردت عليه الإبل الغريبة وشربت منه.

(١) يقول: أنت بين الملوك كالمستقيم بين المعوج.

(٢) يقول: إن فضلت الناس وأنت واحد منهم، فلا عجب، إذ قد يفضُل بعضُ الشيءِ جملتَه، كالمِسك، وهو بعض دم الغزال، يفضل الغزال كلّه.

(٣) يقول: الحزن لأجل المصيبة يقلقني، والتجمل - تكلف الصبر - يمنعني عن التهالك والجزع، والدمع بين الحالين عاص لدى التجمّل فيحتبس مطيعاً للقلق فينسكب وبذاك يعصى صاحبه تارة ويطيعه أخرى.

(٤) عني بالمسهد - أي الكثير السهاد، الممنوع عنه النوم - نفسه. يقول: الحزن والصبر يتنازعان دموع عيني فالحزن يجيء بها - أو يجريها والتجمل يردها.

(٥) يقول: النوم بعد أبي شجاع لا يألف العين: أي لا تنام العيون بعده حزناً عليه، والليل يطول فلا ينقضي، كأنه قد أعيا عن المشي - كل من التعب - فانقطع، والكواكب ظلع - كالعرجى - لا تقدر أن تقطع الفلك فتغرب. يريد طول الليل لاستيلاء الحزن عليه والهم

إنِّـي لأَجْبُـنُ مِنْ فِـرَاقِ أَحِبَّتِـي
وَتُحِسُّ نَفْسِي بِالْحِمامِ فَأَشْجُعُ(١)

وَيَـزِيدُني غَضَبُ الأَعَـادِي قَسْوَةً
وَيُلِمُّ بِي عَتْبُ الصَّدِيقِ فَأَجْزَعُ(٢)

تَصْفو ٱلْحَيَاةُ لِجَاهِلٍ أَوْ غَـافِلٍ
عَمَّـا مَضَى فِيهَـا ومـا يُتَـوَقَّـعُ(٣)

وَلِمَنْ يُغَـالِطُ في ٱلْحَقَائِقِ نَفْسَـهُ
وَيَسُومُهَا طَلَبَ ٱلْمُحَالِ فَتَطْمَعُ(٤)

= على قلبه. وعبارة ابن جني: لو كان الليل والكواكب ممّا يؤثّر فيهما حزن لأثّر فيهما موته. وقال الخطيب: إنّما أراد أنّ الليل طويل لفقده فالليل معي والكواكب ظلع ما تسير. يريد طول الليل للحزن.

(١) الحمام: الموت. يقول: أنا جبان عند فراق الأحبة أخافه خوف الجبناء وأشجع عند الموت في ميدان الوغى فلا أهابه. يعني أن الفراق أعظم خطباً عنده من الموت كما قال أبو تمام:

جـليـد عـلى عـتـب الـخـطوب إذا عـرت
ولـسـتُ عـلى عـتـب الاخـلاء بـالْـجَـلْدِ

(٢) يقول: إنه صعب على أعدائه لا يلين لهم، بل يزداد عليهم قسوة إذا غضبوا، ويجزع عند عتب الصديق فلا يطيق احتماله، كما قال أشجع السلمي:

يُـعـطِي زمـامَ الـطوع إخـوانَـهُ
ويـلتـوي بـالـمـلكِ الـقـادِرِ

وبعد: فإن المتنبي يريد بهذين البيتين عطفه ورقّة قلبه عند الموادّة والملاينة، وشدته عند المباطشة والمقاومة.

(٣) قوله عما مضى: متعلّق بغافل، ويتوقع: ينتظر. يقول: إنما تصفو الحياة لجاهل لا يدرك أحوالها ومصايرها، أو غافل عما مضى فها من العبر وما ينتظر في العواقب من انقضائها أو أحداثها التي لا يطيق لها احتمالاً، أما العاقل الفطن الذي ينظر إلى الدنيا بعين المعرفة ويتأملها تأمل الدراية ويمثل صوارفها وتصاريفها فإنها لا تصفو له.

(٤) يسومها: يكلّفها، ويعني بالحقائق: ما لا شك فيه للعاقل، وهو أنّ الدنيا على الحقيقة دار غرور وأخطار، والإنسان فيها على خطر عظيم، وأنّ الحياة، فانية فمن غالط في هذا نفسه =

٥

أَيْنَ الَّـذِي الهَـرَمَـانِ مِنْ بُنْيَـانِـهِ
مَا قَوْمُـهُ مَا يَـوْمُهُ مَـا المَصْرَعُ(١)

تَتَخَلَّفُ الآثَـارُ عَنْ أَصْحَـابِهَـا
حِينـاً وَيُـدْرِكُهَـا الْفَنَـاءُ فَتَتْبَـعُ(٢)

لَمْ يُرْضِ قَلْبَ أبي شُجَاعٍ مَبْلَغٌ
قَبْلَ المَمَاتِ وَلَمْ يَسَعْهُ مَوْضِعُ(٣)

كُـنَّـا نَـظُنُّ دِيَـارَهُ مَـمْـلُوءَةً
ذَهَبـاً فَمَـاتَ وَكُـلُّ دَارٍ بَلْقَـعُ(٤)

=ومناها السلامة والبقاء صفا له العيش حين ألقى عن نفسه الفكر في العواقب، وسام نفسه طلب المحال من البقاء في السلامة مع نيل المراد، فطمعت في ذلك.

(١) الهرمان: هما الهرم الأكبر الأوسط ـ وهما معروفان. يقول أين من بناهما؟ وأين قومه؟ ومتى كان يوم موته؟ وكيف كان مصرعه؟ يعني أنّهما بقيا بعد من بناهما واندرس ذكره وذكر قومه، فما يعرفون ولا يعرف بأيِّ ميتة هلك، ولا في أيِّ وقت لطول ممرّ الدهر عليه. يريد أنّ الدنيا مفنية لأهلها منكرة على من اغتر بها، وأنّ الفناء حتم في رقاب العباد، وأن الجميع صائرون إلى الفناء. وعبارة العكبريّ: قوله أين الذي الهرمان من بنيانه: استدل ببنائهما على تمكّنه، وأقامهما شاهدين على قوته وقدرته، أي أين هو وقوته؟ وأين قومه وكثرتهم؟ وأين عددهم وعددهم؟ أما عفت الدنيا آثار ملكه وأفنته؟ أما فرقت شمله وشتّته؟ أما في بطن الأرض غيبته؟.

(٢) يقول: إن الآثار تبقى بعد أصحابها حيناً من الدهر تدلّ على تمكنهم وقوّتهم وسطوتهم ثم ينالها ما نالهم من الفناء فتذهب كما ذهب أصحابها، وهذه شنشنة الدنيا مع أهلها، والمعهود من تصاريفها.

(٣) يقول: إنه ـ لبعد مرتقى همّته ـ لم يكن يرضى بمبلغ يبلغه في العلا حتى يطلب ما فوقه، ولم يكن ليسعه موضع من الأرض لأنه لا يشبع طموحه.

(٤) البلقع: الخالي. يقول: كنّا نظنّه صاحب ذخائر من الأموال، فلمّا مات لم يخلف مالاً لأنه كان جواداً معطاء.

وإذا المَكَـارِمُ والصَّـوَارِمُ والْقَنـا
وَبَناتُ أَعْوَجَ كلُّ شَيْءٍ يَجْمَعُ(١)
اَلْمَجْـدُ أخْسَرُ والمَكَـارِمُ صَفْقَـةً
مِنْ أَنْ يَعِيشَ لَهَا الْكَرِيمُ الأروعُ(٢)
والنَّـاسُ أَنْزَلُ في زَمَـانِكَ مَنْـزِلاً
مِنْ تُعَـايِشَهُمْ وَقَـدْرُكَ أَرْفَـعُ(٣)
بَـرِّدْ حَشَايَ إنِ آسْتَـطَعْتَ بِلَفْظَةٍ
فَلَقَـدْ تَضُـرُّ إذا تَشَـاءُ وَتَنْفَـعُ(٤)

---

(١) يقول: وإنما كل ما كان يجمعه في حياته المكارم والأسلحة والخيل، أما الذهب فلا، لأنه كان يفرقه بالعطاء، بنات أعوج: يعني الخيل؟ وأعوج: فحل مشهور من خيل العرب، تنسب إليه الخيل الأعوجية، قيل سمى بذلك لأن غارة وقعت على أصحابه ليلاً وكان مهراً، ولضنهم به حملوه في وعاء على الإبل حين هربوا من الغارة، فاعوج ظهره وبقي فيه العوج، فلقب بالأعوج.

(٢) الأروع: الذكي الفؤاد. يقول: إن المجد والمكارم أخسر صفقة وأنقص حظاً من أن يعيش لها هذا المرثيّ، يعني أنها شقيت لذهاب من كان يحفظها ويجمع شملها وقال العكبريّ - عند إعراب قوله المجد أخسر والمكارم صفقة: إذا جعلت التقدير المجد والمكارم أخسر صفقة اختل، لأنك تفصل بالمكارم بين أخسر وبين صفقة، وهي منصوبة بأخسر - التي هي عطف على المجد - وهذا غير جائز، لأن صفقة تحل من أخسر محل الصلة من الموصول، ألا ترى أنه لا يجوز أن تقول زيد أحسن وعمرو وجهاً، ولكن لك أن تصرفه إلى وجه آخر، وهو أن تجعل المكارم عطفاً على الضمير في أخسر؟ فإن عطفته على الضمير الذي فيه لم يكن أجنبياً منه، فلا يعد فصلاً بينه وبين صفقة، فيصير نحو قولك. مررت برجل أكل وعمرو خبزاً، بعطف عمرو على الضمير في أكل ونصب خبزاً بأكل.

(٣) يقول: إن الناس في زمانك أقلّ قدراً من أن تكون بينهم تخالطهم وتعاشرهم، وقدرك أجلّ من أن تعايش أهل هذا الزمان.

(٤) يقول: كلِّمْني كلمة وأسمعني منك لفظة إن قدرت عليها، ليسكن ما في قلبي من لوعة الحزن، فلقد كنت في حياتك تضر - إذا تشاء - أعداءك، وتنفع أولياءك، أو فانفعني بكلامك.

مـا كَانَ مِنْـكَ إِلَى خَلِيـلٍ قَبْلَهَـا
مـا يُسْتَرَابُ بِـهِ ولا مَا يُـوجِعُ(١)
ولَـقَــدْ أَرَاكَ ومَــا تُـلِمُّ مُـلِمَّـةٌ
إلَّا نَفَـاهَا عَنْـكَ قَلْبٌ أَصْمَـعُ(٢)
وَيَــدٌ كَــأَنَّ قِتَـالَهَـا ونَــوَالَهَـا
فَـرْضٌ يَحِقُّ عَلَيْكَ وَهْـوَ تَبرعُ(٣)
يـا مَنْ يُبَــدِّلُ كُـلَّ يَـوْمٍ حُلَّةً
أَنَّـى رَضِيـتَ بِحُـلَّةٍ لاَ تُنْـزَعُ(٤)
ما زِلْتَ تَخْلَعُهَا على مَنْ شَاءَهَا
حَتَّى لَبِسْتَ ٱلْيَــوْمَ مَـا لاَ تَخْلَعُ
مَـا زِلْتَ تَدْفَـعُ كُـلَّ أَمْرٍ فَـادِحٍ
حَتَّى أَتَى ٱلأَمْرُ ٱلَّذِي لاَ يُدْفَعُ(٥)

(١) يقال استراب به: أي رأى منه ما يريبه؟ أيْ يقلقه. يقول: لم يكن منك إلى أخلائك قبل هذه المرة: أي قبل أن تفجعهم بنفسك: ما يريبهم منك أو يوجعهم، فلما فقدت أوجعت قلوبهم وأبكيت عيونهم.

(٢) الأصمع: الذكي الحاد، وقوله وما تلم: حال. يقول: كنت أراك في حال حياتك وما تنزل بك نازلة من نوازل الدهر إلا دفعها عنك قلب ذكي.

(٣) يقول: ونفاها عنك يد شنشنتها إعطاء الأولياء وقتال الأعداء حتى لكأن النوال والقتال واجبان عليها، وهما تبرع ولا وجوب.

(٤) يريد: يا من كان في حياته يلبس كل يوم لباساً جديداً... إذا يخلع الملبوس على من يقصده - كيف ترضى أن تلبس الآن حلة لا تخلع؟ يعني الكفن - والحلة: اللباس من ثوبين - إزار ورداء - ولا تسمى حلة حتى تكون ثوبين.

(٥) الفادح: الذي يثقل حمله، وفي هذا المعنى يقول الحماسي:

دَفَـعْـنـا بِـكَ الأَيَّـامَ حَـيْـثُ إذا أَتَـتْ
تُـرِيـدُكَ لـم نَـسْـطِعْ لـهـا عـنـك مَـدفـعـا

فَـظَلِلْتَ تَنْظُرُ لاَ رِمَـاحُـكَ شُـرَّعٌ

فِيمَـا عَرَاكَ وَلاَ سُيُـوفُكَ قُـطَّعُ (١)

بِـأَبِي الْـوَحِيـدُ وَجَيْشُـهُ مُتَكَـاثِـرٌ

يَبْكِي وَمِنْ شَرِّ السِّلَاحِ الأَدْمُعُ(٢)

وَإِذَا حَصَلْتَ مِنَ ٱلسِّلَاحِ عَلَى ٱلْبُكَا

فَحَشَاكَ رُعْتَ بِهِ وَخَدَّكَ تَقْرَعُ(٣)

---

(١) عراك: أصابك ونزل بك، وشرع الرمح: بسط اليد به وسدَّده. يقول: ظللت - أقمت - تنظر إلى الموت نظر العاجز لم تعمل رماحك ولا سيوفك في دفع ما نزل بك، إذ لا مدفع للموت.

(٢) بأبي: تفدية. وقوله وجيشه متكاثر: حال من ضمير الوحيد، ومتكاثر: خبر أول لجيشه، ويبكي: خبر ثان. يقول: إنه - مع كثرة جيوشه - كان وحيداً مع الأنصار، فلم يكن لجيوشه غناء فيما نزل به غير البكاء، ولا عدّة غير الدموع، مع أن الدموع من شرّ الأسلحة، لأنّها تضرّ صاحبها ولا تغني شيئاً عند المصيبة. وقد فسر هذا في البيت التالي.

(٣) رعت: أفزعت وأخفت، وتقرع: تضرب. يقول: إذا لم يكن لك سلاح غير البكاء فلا غناء في الكباء، إنما تروع به القلب وتقرع به الخد. أي أنه لا يجدي ولا يدفع شيئاً.

رثاء محمّد بن بقيَّة

عندما انتصر عضد الدولة على ابن عمه عزّ الدولة، قتل محمَّد بن بقيَّة وزير عزّ الدولة صَلْباً، فرثاه أبو الحسن الأنباري بهذه القصيدة التي لاقت شهرة واسعة حتّى إن عضد الدولة لما وقف عليها، قال: لقد تمنّيت أن أكون أنا المصلوب، وتكون هذه القصيدة فيّ.

عُلُوٌّ في الحَيَاةِ وفي المَمَاتِ
لَحَقٌّ تِلْكَ إحْدَى المُعْجِزاتِ

كأنَّ الناس حَوْلَكَ حِيْنَ قَامُوا
وُفُودُ نَدَاكَ أيَّامَ الصِّلاتِ

كأنَّكَ قائمٌ فيهِمْ خَطِيباً
وَكُلُّهُمُ قِيَامٌ للصَّلاة

مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمُ آحْتِفَاءً
كَمدِّهما إليهم بالهِبَاتِ

ولمّا ضاقَ بَطْنُ الأرْض عَنْ أنْ
يَضُمَّ عُلاكَ مِنْ بَعْدِ الوفاةِ

أصــاروا الـجَــوَّ قَبْــرَكَ واسْـتَـعــاضُــوا
عَــنِ الأَكْــفَــانِ ثَــوبَ الــسَّــافِــيــاتِ
لِعــظْمِـكَ في النُّفــوسِ بَقِيــتَ تَــرْعَى
بِــحُــرَّاسٍ وَحُــفَّــاظٍ ثِــقَــاتِ
وَتُــوقَــدُ حَــوْلَـكَ الــنِّــيرانُ لَــيْــلاً
كــذَلِــكَ كُــنــتَ أَيَّــامَ الــحَــيَــاةِ
رَكِــبْــتَ مَــطِيَّــةً مِــنْ قَــبْــلُ زَيْــدٌ
عَــلاَهَــا في الــسِّــنِيــن الــمــاضِــيــاتِ
وَتِــلْكَ قَــضِــيَّــةٌ فــيــهــا تَــأَسٍّ
تُــبَــاعِــدُ عَــنْــكَ تَــعْــيِــيــرَ الــعُــداةِ
وَلَــمْ أَرَ قَــبْــلَ جِــذْعِــكَ قَطُّ جِــذْعــاً
تَــمكَّــنَ مِــنْ عِــنَــاقِ الـمَــكْــرُمَــاتِ
أَسَــأْتَ إلى الــنَّــوائِــبِ فَــاْسْتَــثــارَتْ
فــأَنْــتَ قَــتِــيــلُ ثــأرِ الــنَّــائِــبــاتِ
وَكُــنْــتَ لِــمَــعْــشَــرٍ سَــعْــداً فَــلَمَّــا
مَــضَــيْــتَ تَــفَــرَّقُــوا بــالــمُــنْــجِــسَــاتِ
غَــلِيــلٌ بــاطِــنٌ لَــكَ فــي فُــؤادي
يُــخَــفَّــفُ بــالــدُّمُــوعِ الــجــارِيــاتِ
وَلَــوْ أَنِّــي قَــدِرْتُ عــلى قِــيــامٍ
بِــفَــرْضِــكَ والــحُــقُــوقِ الــواجِــبــاتِ

مــلأتُ الأرْضَ مِــنْ نَــظْمِ الـقــوافــي
وَنُــحْــتُ بــهــا خــلافَ الـنَّــائــحــاتِ
ولــكــنِّــي أُصَــبِّــرُ عَــنْــكَ نَــفْــســي
مــخــافــةَ أنْ أُعَــدَّ مِــنَ الــجُــنَــاةِ
ومــا لَــكَ تــربَــةٌ فــأقــولَ تُــسْــقَــى
لأنَّــكَ نَــصْــبُ هَــطْلِ الــهــاطــلاتِ
عــلــيــكَ تَــحِــيَّــةُ الــرَّحْــمَــن تَــتْــرى
بِــرَحْــمَــاتٍ غــوادٍ رائــحَــاتِ

عليّ بن محمّد التهاميّ

لأبي الحسن علي بن محمد التهامي. وهو شاعر لطيف النظم، تُوفِّي قتلاً في سجن مصر سنة ٤١٦ هـ، وكان قد وصل إليها في مهمّة سياسيّة خفيّة. وهذه المرثاة في ولد له مات صغيراً، وهي مشهورة بحسنها وروعتها، تجمع بين الحزن، والحِكَم، والفخر، وتزيد أبياتها على الثمانين نقتصر منها على هذه النخبة:

حُكْمُ المنيَّةِ في البَرِيَّةِ جارِ
ما هذِهِ الدُّنْيا بِدارِ قرارِ
يا كَوْكَباً ما كانَ أقْصَرَ عُمْرَهُ
وكذاكَ عُمْرُ كواكِبِ الأسْحارِ
وَهِلَالَ أيّامٍ مَضَى لم يَسْتَدِرْ
بَدْراً ولم يُمْهَلْ لِوَقْتِ سرار[1]
عَجِلَ الخُسُوفُ عَلَيْهِ قَبْلَ أوانِهِ
فَمَحاهُ قَبْلَ مَظَنَّةِ الإبْدارِ
وَٱسْتُلَّ مِنْ أتْرابِهِ وَلِداتِهِ
كالمُقْلَةِ ٱسْتُلَّتْ مِنَ الأشْفارِ

(١) وقت السرار: آخر ليلة في الشهر.

فكأنَّ قلبي قَبْرَهُ وكأنَّهُ
في طيِّهِ سِرٌّ مِنَ الأسْرار
أبْكِيهِ ثمَّ أقُولُ مُعْتذراً لَهُ
وُفِّقْتَ حين تَرَكْتَ ألأَمَ دارِ
جاوَرْتُ أعْدائِي وَجَاوَرَ رَبَّهُ
شَتَّانَ بين جِوارِهِ وَجِوارِي
أُخْفِي مِن البُرَحَاءِ ناراً مِثْلَ ما
يُخْفي مِنَ النارِ الزِّنادُ الواري
وأُخَفِّضُ الزُّفَراتِ وهي صواعِدٌ
وأكَفْكِفُ العَبَراتِ وهي جَوارِ
وشِهابُ نارِ الحُزْنِ إنْ طَاوَعْتُهُ
أوْرَى وإنْ عَاصَيْتُهُ مُتَوارِي
وأكُفُّ نيرانَ الأسَى وَلَرُبَّما
غُلِبَ التَّصَبُّرُ فَارْتَمَتْ بَشَرَارِ
ثوبُ الرِّياءِ يَشُفُّ عَمّا تَحْتَهُ
وإذا التَحَفْتَ به فإنَّكَ عارِ
قَصُرَتْ جفوني أم تَبَاعَدَ بَيْنَهَا
أمْ صُوِّرَتْ عَيْني بلا أشْفارِ
أُحْيِي اللَّيالِي التِّمَّ وهي تُمِيتُني
وَيُمِيتُهُنَّ تَبَلُّجُ الأسْحارِ
وَطَرِي من الدُّنْيا الشَّبابُ وَرَوقُهُ
فإذا آنْقَضَى فَقَدِ انْقَضَتْ أوْطاري

قَصُرَتْ مَسَافَتُهُ وما حَسَنَاتُهُ
عِنْدِي وَلاَ آلاؤُهُ بِقِصَارِ
نَزْدادُ هَمّاً كلَّما آزْدَدْنا غنىً
والفَقْرُ كلُّ الفَقْرِ في الإكثارِ
ما زادَ فَوْقَ الزادِ خُلِّفَ ضائعاً
في حادِثٍ أو وارِثٍ أو عارِ
إنِّي لأَرْحَمُ حاسِدِيَّ لِحَرِّ ما
ضَمِنَتْ صُدُورُهُمْ مِنَ الأوغارِ

من الرثاء
في العصر
الأندلسي

أبو البقاء الرُّنديّ

هو صالح بن شريف الرّنديّ، نسبةً إلى رُندة في جنوبي الأندلس. شاعر أندلسيّ متأخّر من أبناء القرن التاسع الهجريّ. اشتهر بقصيدته السائرة في رثاء الأندلس.

رثاء الأندلس

لِكُلِّ شَيْءٍ إذا ما تَمَّ نُقْصَانُ
فلا يُغَرَّ بِطيبِ العَيْشِ إنْسَانُ
هي الأُمُورُ كما شاهدْتُهَا دُوَلٌ
مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أزْمَانُ
وَهَذِهِ الدَّارُ لا تُبْقِي على أَحَدٍ
وَلاَ يَدُومُ علَى حَالٍ لَهَا شَانُ
أتى على الكُلِّ أمْرٌ لا مَرَدَّ لَهُ
حتَّى قَضوا، فَكَأنَّ القَومَ ما كانُوا
وَصَارَ مَا كَانَ من مُلْكٍ وَمِنْ مَلِكٍ
كَمَا حَكَى عَنْ خَيَالِ الطيفِ وسْنَانُ

فجائعُ الدَّهْرِ أنواعٌ مُنَوَّعَةٌ
ولِلزَّمانِ مَسَرَّاتٌ وأحْزَانُ
ولِلْحَوَادِثِ سَلْوَانٌ يُسَهِّلُهَا
وَمَا لِمَا حَلَّ بالإسْلامِ سَلْوَانُ
دهى الجَزِيرَةَ أمْرٌ لا عَزَاءَ لَهُ
هَوَى لَهُ أُحُدٌ وانْهَدَّ ثَهْلانُ[1]
تَبْكِي الحَنِيفِيَّةُ البَيْضَاءُ مِنْ أَسَفٍ
كما بَكَى لِفِرَاقِ الإلْفِ هَيْمانُ
على دِيَارٍ من الإسْلامِ خَالِيَةٍ
قَدْ أقْفَرَتْ ولها بالكُفْرِ عمرانُ
يا غافلاً ولَهُ في الدَّهْرِ مَوْعِظَةٌ
إنْ كُنْتَ في سِنَةٍ فالدَّهْرُ يقظان[2]
تلك المُصِيبَةُ أنْسَتْ ما تَقَدَّمَها
وما لها مِن طِوَالِ الدَّهْرِ نسْيانُ
يا رَاكِبين عِتاقَ الخَيْلِ ضامِرَةً
كَأنَّها في مَجَالِ السَّبْقِ عِقْبانُ
وحَامِلِينَ سُيُوفَ الهِنْدِ مُرْهَفَةً
كَأنَّهَا في ظَلامِ النَّقْعِ نيرانُ
وَرَاتِعِينَ وراءَ البَحْرِ في دِعَةٍ
لَهُمْ بأَوْطَانِهِمْ عِزٌّ وسُلْطَانُ

---

(١) أحد وثهلان : جبلان.

(٢) السّنة : الغفلة.

أَعِنْـدَكُمْ نَبَـأٌ مِنْ أَهْـلِ أَنْـدلُسٍ
فَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ القَوْمِ رُكْبَـانُ
كم يَسْتَغِيثُ بنا الْمُسْتَضْعَفُونَ وَهُمْ
قَتْلَى وأَسْـرَى فمـا يَهْتَــزُّ إِنْسَـانُ
ماذا التَّقَاطُـعُ في الإِسْلامِ بَيْنَكُمُ
وأَنْـتُمْ يـا عِـبَــادَ آلـلَّهِ إِخْــوانُ
أَلاَ نُفُــوسٌ أَبِيَّــاتٌ لـهــا هِمَـمٌ
أمـا على الخيـرِ أَنْصَـارٌ وأَعْـوانُ
يـا مَنْ لِذلَّـةِ قَـوْمٍ بَعْـدَ عِـزِّهِمِ
أَحَــالَ حَــالَهُمُ جَــوْرٌ وَطُغْيَــانُ
بالأَمْسِ كانُوا مُلُوكاً في مَنَازِلِهِمْ
واليَوْمَ هم في بِلادِ الكُفْرِ عُبْدَانُ
وَلَــوْ رَأَيْتَ بُكَـاهُمْ عِنْــدَ بَيْعِهِمُ
لَهَـالَكَ الأَمْـرُ واسْتَهْوَتْـكَ أَحْزَانُ
لِمِثْلِ هَذا يَذُوبُ القَلْبُ من كَمَدٍ
إنْ كانَ في القَلْبِ إسلامٌ وإِيمانُ

من الرّثاء في العصر الحديث

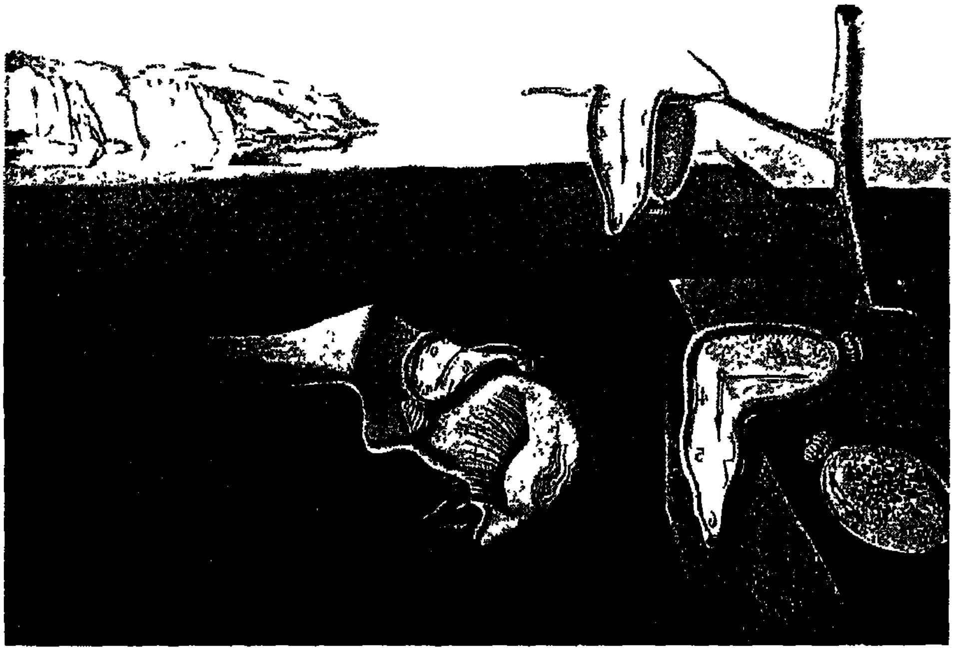

سلفادور دالي
ـ إلتحاح الذاكرة ـ ١٩٣١

هذه اللوحة لسلفادور دالي، وفيها يتثاءب الوقت، وتسيل الساعات وتتمدّد على بقايا شبه إنسانيّة وغصون يابسة مكعّبات: أو يحتاج النمل الأسود الآكل، ساعة مقفلة على الوقت.

بينما يبدو الأفق الشاحب الغرائبيّ، وكأنه عالم آخر أبديّ لا ينتمي إلى الوقت الإنسانيّ، في تناقض مع القلق والسأم والتشويه والهلاك، وكلّها مترافقة مع مرور الوقت في ذاكرة الإنسان الحاجة.

الياس أبو شبكة

أديب لبنانيّ (١٩٠٣ - ١٩٤٧ م) ولد في نيويورك، وعاش في لبنان. عشق الطبيعة، ووقف إلى جانب الإنسان كان من البناة المجدِّدين، وأروع ما عنده المزج البديع بين الإنسان والطبيعة. له آثار شعريّة ونثريّة، منها «أفاعي الفردوس»، و «غلواء»، و «الرسوم».

من أشهر قصائده في الرثاء قصيدته «الحجر الحيّ» تلك التي قالها في فوزي المعلوف الذي توفّي في البرازيل، وأُقيم له تمثال نصفي أُثبت فوق نصب تذكاري في ساحة بلدية زحلة (لبنان) مدينته الأم.

ومن هذه القصيدة:

أَطْبِقْ جنـاحَيْـكَ مَعْقُـوداً لَـكَ الـظَّفَـرُ
فَقَـدْ وَصَلْتَ وشَـوْطُ[1] المجْـدِ مُخْتَصَرُ

مـا ضـرَّ وَكْـرَكَ أن تَـأتيـهِ مُنْـطَفِئـاً
مـا دَامَ قـلبُـكَ في جَـنْبَيْـهِ يَسْتَعِـرُ[2]

أَتـيتَـهُ فـي الـنُّحـاسِ الـحيِّ طيِّبَـةً
عـليـهِ مِـنْ روحِـكَ الأَعْـرَاقُ والـسُّـرَرُ

(١) الشوط: المرحلة.
(٢) يستعر: يشتعل.

عَينــاكَ في الحَجَرِ المصبــوبِ ســاهِــرَةٌ
يَقْــظَانَــةٌ فيهمَــا أَحــلامُــكَ الـغُــرَرُ[1]

* * *

نِيــرانُ عَبْقَــرَ في عَيْنَيْــكَ إن مَــرَدَتْ[2]
هُــوجُ الــدُّجَى فَعَلَى عَيْنَيْــكَ تَـنْصَـهِـرُ
مَهْمَــا طَغَى الليــلُ لا تُشْقِيــكَ زَوبَـعَــةٌ
وَلاَ تَــجَـهُّــمَ فـي أجـفــانِـكَ الـحَــوَرُ

* * *

يَقْــظَانُ والنـــاسُ عُـمْيٌ فـي مَــرَاقِــدِهِم
سِيّــانَ نامُــوا على ذُلٍّ أم احتُضِــرُوا
عَــارٌ عَــلَيْـنــا نَــنَــامُ الــليــلَ هــائِـمَــةً
عُـيــونُـنــا وعِـبَــابُ الـلّيــلِ مُـعْـتَـكِـرُ
وتَشْهَـدُ الصُبْحَ عُــرسَ الصُبحِ مُنْعقــداً
عَـلَى جَـبـيـنِــكِ نــورٌ مِـنــهُ يـنــضَـفِـرُ
وَلاَئِــمٌ لَــكَ تُــزْجَـى مِــنْ مَــوائِــدِهَــا
الـعــطرُ والـنّــورُ والألــحــانُ والـصُــوَرُ

* * *

تَــشُــدُّ جَـفْـنَـيْــكَ رؤيَــا لا قَــرارَ لَـهــا
كَــأَنَّمَــا الغَيْبُ فـي عَيْـنَيْــكَ مُنْحَـصِـرُ

---

(١) الغرر: البهيّة.
(٢) مردَت: عصَتْ.

عَـيْنُ الـعــظيمِ ضِـيــاءُ الأنـبـيــاءِ بِـهــا
مَــرَّ الـجحـيمُ ولـم يَــطرفْ لهــا بَـصَــرُ
مُـنْـــذُ ابـنِ مــريــمَ والأكـفــانُ هــاوِيَــةٌ
عَـنِ النُبــوغِ وصَـخــرُ الـقَبــرِ مُنْحَــدِرُ
كــم فــي بِــلادِكَ مـن نَـفْسٍ تَــوَدُّ عــلى
وقــاحِ عــورتِـهــا أن تُـسـدَلَ الـستُــرُ

* * *

أبــا النُســورِ، سَقَيْتَ المــوتَ خَمْــرَتَــه ,
فَصَلبُــكَ الـمُصْــطَفَى لِلْخُـلْدِ مُــدَّخَــرُ
مــا ضَــرَّ نَسْــرَكَ لم يَعْقِبْ وقــد نَسَلَتْ
مِـنْــهُ النُـجُــومُ، فَـفَــوْزي وحــدَه أسَــرُ
ورُبَّ حَـيٍّ غَــدَا فــي قــومِــهِ حَــجــراً
ورُبَّ مَيْتٍ غَــدَا حَـيًّــا بِــهِ الحَـجَــرُ

مصطفى المنفلوطيّ

أديب مصريّ (١٢٨٩ هـ/ ١٨٧٢ م - ١٣٤٣ هـ/ ١٩٢٤ م) نابغة في الإنشاء والأدب. انفرد بأسلوب نقيّ في مقالاته وكتبه. وله شعر جيد فيه رقّة وعذوبة. من مؤلّفاته «النظرات»، و«في سبيل التاج»، و«العبرات»، و«مجدولين».

ومن رثائه نثبت قوله في رثائه ابنه.

١ - الآنَ نَفَضْتُ يَدَيَّ من تُرابِ قبرِكَ يا بُنيّ، وعُدتُ إلى مَنْزِلي، كما يعودُ القائدُ المُنكَسِرُ من ساحةِ الحربِ، لا أملِكُ إلّا دمعةً، لا أستطيعُ إرسالَها، وزَفرةً لا أستطيعُ تَصعيدَها؛ ذلك لأنّ اللّهَ الذي كَتَبَ لي في لوحِ مَقاديرِهِ[1] هذا الشّقاءَ في أَمْرِكَ، فرَزَقَني بكَ قبلَ أنْ أسألَهُ إيّاك، ثمَّ اخْتَطَفَكَ قبلَ أن أسْتَعْفِيهِ[2] مِنْكَ، قد أرادَ أن يُتمِّمَ قضاءَه فيَّ، وأنْ يُجرعني الكأس حتّى ثُمالتِها[3]، فَلَهُ الحَمْدُ راضياً وغاضباً، وله الثّناءُ مُنعِماً وسالِباً، ولَهُ منّي

(١) لوح المقادير: إيمان دينيّ بأنّ الله يضع لكلّ إنسان حين يُولد لوحاً يكتب عليه سيرة حياته الدنيا والمصائب التي تنزل به.

(٢) أستعفيه: أطلب منه العفو عن تكليفه.

(٣) الثمالة: البقية الباقية في الكأس.

ما يَشاءُ منَ الرِّضا بِقضَائِهِ، والصَّبْرِ عَلى بَلائِه.

٢ ـ رأيتُكَ يا بنيَّ في فِراشِكَ عليلاً فَجزِعْتُ(١)، ثم خِفْتُ عليكَ الموتَ فَفَزِعْتُ، وكأنّما كان يُخَيَّلُ إليَّ أنَّ الموتَ والحياة شأنٌ من شُؤونِ الناسِ، وعَمَلٌ منَ الأعمالِ التي تَملِكُها أيْدِيهِمْ، وآسْتَشَرْتُ الطَّبِيبَ في أمرِكَ، فكتبَ ليَ الدواءَ، وَوَعَدني بالشِّفاءِ، فجَلَسْتُ بجانِبِكَ أصُبُّ في فمكَ ذلك السائلَ الأصفرَ قَطْرةً قَطْرَةً، والقَدَرُ يَنْتزِعُ من جَنْبَيْكَ الحياةَ قِطعَةً قِطعة، حتى نظرتُ، فإذا أنتَ بين يَديَّ جُثَّةٌ باردةٌ لا حَراكَ بها، وإذا قارورةُ الدّواءِ ما تزالُ في يدي فعلِمتُ أني قد ثكِلْتُكَ، وأن الأمرَ أمرُ القضاءِ لا أمرُ الدَّواء! لقد كان خيراً لي ولكَ يا بُنيَّ أن أكِلَ(٢) إلى اللّهِ أمْرَكَ في شِفائِكَ ومَرضِكَ، وحياتِك، ومَوْتِك. . .

٣ ـ ما أسْمَجَ(٣) وجهَ الحياةِ مِنْ بَعْدِكَ يا بُنيّ! وما أقبحَ صورةَ هذه الكائناتِ في نظري! وما أشَدَّ ظُلمةَ البيتِ الذي أسْكُنُهُ بعد فِراقِكَ إيّاه! فلقد كُنتَ تطلعُ في أرجائِه شَمْساً مُشرقةً تُضيءُ لي كلَّ شيءٍ فيه، أمّا اليومَ فلا ترى عَيْني مِمّا حولي، أكثرَ مما ترى عينُك الآنَ في ظُلُماتِ قبرِك. بكى الباكونَ والباكياتُ عليكَ ما شاءُوا، وتفجَّعُوا، حتى إذا ضَعُفَتْ قِواهُمْ عنِ آحتمالِ أكْثَرَ مِمّا آحتملوا، لجَأُوا إلى مَضاجِعِهِمْ، فسكنوا إليها، ولم يبقَ ساهراً، في ظُلمةِ هذا الليلِ، وسُكونِه، غيرُ عَيْنَيْن قَريحتين(٤): عينِ أبيك

---

(١) جزعت: خفت.

(٢) أكِل: أسلم إلى الله.

(٣) ما أسمج: ما أقبح.

(٤) قريحتين: جريحتين.

الثاكِل المِسكينِ، وعينٍ أُخرى أنتَ تعلَمُها...

٤ ـ دفنتُكَ اليومَ يا بُنيّ، ودَفَنْتُ أخاكَ مِنْ قَبْلِك، ودفنتُ من قبلِكُما أَخَوَيْكُما، فيا لِلّهِ لقلبٍ قد لاقى فوقَ ما تُلاقي القلوبُ، وآحتملَ فوقَ ما تَحتَمِلُ من فوادحِ الخُطوبِ! لماذا ذهبتمْ يا بنيّ بعدما جِئْتُمْ؟ ولماذ جِئتُمْ إن كُنْتُمْ تَعلمونَ أنّكمْ لا تُقيمون؟...

صلاح لبكي

أديب لبناني، كان شاعراً وناثراً ورجل صحافة وبلاغة.

وُلد في البرازيل سنة ١٩٠٦، ثم انتقل، طفلاً، مع أبيه، إلى لبنان، حيث حصَّل قسطاً وافراً من المعارف.

«عاش حياته كلها ـ كاتباً، شاعراً، صحفياً، ومحامياً على الذروة».

هو شاعر مُبدع، أحبّ الجمال، وعبّر عنه في شعر أضفى عليه جماليّة الألفاظ، وجماليّة المعاني، وجماليّة السياق.

هو شاعر إنساني مثاليّ، نبضت العاطفة الإنسانية في كل لفظة من ألفاظه، وفي كل لفتة من لفتاته. توفي سنة ١٩٥٥.

من آثاره: «مواعيد» و«أرجوحة القمر» و«من أعماق الجبل».

مناسبة القصيدة: عندما توفي الشيخ إبراهيم اليازجي رثاه خليل مطران بقصيدة رائعة مطلعها:

ربُّ البيانِ وسيِّدَ القلمِ
وفَّيْتَ قسطَكَ للعلى فنم

وعندما تُوفِّي شاعر الأقطار العربيَّة خليل مطران رثاه شعراء كثيرون، وحدث أن أقامت الكلِّيّة الشرقيَّة بزحلة مهرجاناً لذكرى وفاته، فأنشد الشاعر

الكبير صلاح لبكي القصيدة التالية راثياً ومعارضاً قصيدة للمتنبّي في رثاء والدة سيف الدولة أمير حلب.

رَمَتْكَ بِما تُعِدُّ لَنا اللَّيالي،
فَهذا الشَّجْوُ[1] مِنْ ذَاكَ ٱلْوِصالِ[2]
وَمَا نَبْكِيكَ مَيْتاً، كُلُّ باقٍ
تَمَنَّى أَنْ يَكُونَكَ في المآلِ[3]
وَقَدْ كُنْتَ الضِّياءَ على زَوالٍ،
فَأَمْسَيْتَ الضِّياءَ بِلا زَوالِ
مُعَلِّمَ كُلِّ أُغْنِيَةٍ حَنيناً
وَهَدْيَ ٱلْوِرْدِ في سُبُلِ ٱلْغَوالي[4]
لِمَنْ نُصْغي إذا ٱشْتَبَهَتْ ظُنُونٌ[5]
وَقَدْ سَكَتَ ٱبْنُ ناصِيَةِ المقالِ[6]
أَتَيْتَ الشِّعْرَ وَهْوَ على هُزالٍ
بِأَوْطانٍ سَبَقْنَ إلى ٱنْحِلالِ
فَرُحْتَ تَصُوغُ أَشْتاتَ المعاني
ويَعْصِمُكَ الطُّمُوحُ مِنَ الضَّلالِ

---

(١) الشجو: الهم والحزن.
(٢) الوصال: ضد الهجر.
(٣) المآل: المصير، يقول: كل باق تمنّى أن يكون ميتاً فادياً إيّاك بحياته.
(٤) سبل الغوالي: الطرق التي تؤدي إلى فرائد الأفكار.
(٥) إذا اشتبهت ظنون: أي إذا لم تظهر الحقيقة، ووقعنا في ظنون مختلفة.
(٦) ابن ناصية المقال: أي كما قال خليل مطران «رب البيان وسيد القلم».

وَتَـبْـنـي، فَـالْـقَـصيـدَةُ بَـعْـلَبَـكٌ،
وكَـانَـتْ قَـبْـلُ أَبْـيَـاتَ ٱلْـجِـبَـالِ
لَـقَـدْ جـاوَزْتَ أَبْـكَـارَ الأَواتـي[1]
عَـلى مَـهَـلٍ، وَإِبْـداعَ الأَوالـي[2]
فَلَمْ يُعْجِـزْكَ صَعْبٌ في مـجـالٍ،
وَلا أَغْـواكَ سَـهْـلٌ فـي مَـجـالِ
كَـأَنَّ ٱلْـحُـسْـنَ أَسْـلَمَ كُـلَّ سِـرٍّ
إِلَـيْـكَ، فَـصِـرْتَ مَـوْضُـوعَ السُّؤالِ
نَـعَـى لُـبْـنَـانُ، يَـوْمَ نُـعِـيـتَ، عَـقْـلاً
تَـرَسَّـلَ[3] لِـلـحـقِـيـقَـةِ وَٱلْـجَـمـالِ
نَـعَـى ٱلْـقَـلْـبَ ٱلَّـذِي غَـمَـرَ ٱلْـبَـرايـا
حَـنـانـاً غَـيْـرَ مُـنْـقَـطِـعِ الـنَّـوالِ[4]
نعَى ٱلْخُلُقَ ٱلْحَصَانَ[5]، نعَى السجايا
نَعَى ٱلْعَـذْبَ المنـاقِبِ وَٱلْـخِـلالِ[6]
نَـعَـى الأَوْفَـى مَـواثـيـقـاً وَعَـهْـداً،
وَلَـوْ كَـرَّ الـزَّمـانُ بِـغَـيْـرِ حـالِ

---

(١) جاوزت أبكار الأواتي: أي انك سبقت الآتين بعدك إلى المبتكرات.
(٢) الأوالي: أي الذين سبقوك ولا سيّما الأقدمين منهم.
(٣) ترسّل: أي مال ميلاً شديداً.
(٤) النوال: العطاء.
(٥) الخلق الحصان: أي المصون.
(٦) الخلايا والسجايا والمناقب: الصفات الخلقيّة الكريمة.

نَعى الآدابَ، عِلْماً وَآحْتِشاماً،
وَذاكَ الصَّوْغُ في ذاكَ آلْجَلالِ
أخا آلْهِمَمِ آلْكِبارِ، سَطَعْتَ فينا
أباً لِلْعَبْقَرِيّاتِ الصِّقالِ
لِئِنْ تَكُنِ آلْمَنِيَّةُ جُلَّ فَضْلٍ
فَقَدْ وَفَّيْتَ قِسْطَكَ لِلْمَعالي
وَحُقَّ لَكَ الرُّقادُ، وَأنْتَ طِفْلٌ
تَخَطّى السّابِقينَ إلى آلْكَمالِ

الأخطل الصغير

هو بشارة بن عبد الله الخوري (١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م - ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م) أشهر شعراء لبنان في العصر الحديث. مولده ووفاته في بيروت. أنشأ جريدة «البرق»، وعمل في الصحافة طول حياته. له ديوانان شعريّان، هما الهوى والشباب»، و«شعر الأخطل الصغير». من أهم قصائده في الرّثاء تلك التي قالها في رثاء سعد زغلول التالية، وسنثبت بعدها القصيدة الشهيرة التي قالها في الاحتفال الذي أقيم في حلب تكريماً لشاعرها الخالد أبي الطّيب المتنبّي بمناسبة مرور ألف سنة على وفاته.

قالوا: دَهَتْ مِصْرَ دَهْيَاءُ. فَقُلْتُ لَهُمْ:
هَلْ غُيِّضَ النِّيلُ أَمْ هَلْ زُلْزِلَ الهَرَمُ؟
قالوا: أَشَدُّ وَأَدْهى. قُلْتُ: وَيْحَكُمُ
إذاً، لَقَدْ ماتَ سَعْدُ، وَانْطَوى العَلَمُ!

* * *

لِمْ لا تقولون: إنَّ العُرْبَ قاطِبَةً
تَيَتَّموا، كانَ زُغْلولٌ أباً لَهُمُ؟
لِمْ لا تَقولونَ: إنَّ الغَرْبَ مُضْطَرِبٌ
لِمْ لَا تَقولونَ: إنَّ الشَّرقَ مُضْطَرِمُ؟

عَذَرْتُكُمْ، كانَ مِلْءَ الكَوْنِ صاحِبُكُمْ
فَكَيْفَ تَمْلأُ أُذْنَ السّامِعِ الكَلِمُ؟
لَلصَّمْتُ أَبْلَغُ مِنْهَا، وَهُوَ مُنْسَحِقٌ
والدَّمْعُ أَفْعَلُ مِنْهَا، وَهْوَ مُنْسَجِمُ

* * *

جاءَ النَّبيُّون مِنْ قَبْلٍ، فَما لأَمُوا
وَجاءَ سَعْدٌ، فشَمْلُ الشَّرقِ مُلْتَئِمُ
القائِلُ الحقَّ لا تُثْنَى أَعِنَّتُهُ
والواحِدُ الفَرْدُ في أَثْوابِهِ أُمَمُ
لُطْفُ المسيحِ مُذابٌ في مَحاجِرِهِ
وَعَزْمُ أَحْمَدَ في جَنْبَيْهِ يَحْتَدِمُ
صَلَّى عَلَيْهِ النَّصارى في كَنائِسِهِمْ
والمسْلِمونَ سَعَوا لِلْقَبْرِ، وَٱسْتَلَمُوا

* * *

المُؤمنونَ بِسَعْدٍ، أَينَ أَبْصِرُهُمْ
والمُعْجَبونَ بِسَعْدٍ، أَينَ أَينَ هُمُ؟
أَفْرِي الطَّيالِس عَنْهُمْ لا أُشاهِدُهُمْ
أَبْري القَلانِس عَنْهُمْ لا أُحِسُّهُمُ
وَأَسْأَلُ الحَفْلَ عَنْهُمْ لا يُجاوبني
كَأَنَّمَا الحَفْلُ في آذانِهِ صَمَمُ

* * *

بَلَى شَهِدْتُهُمْ والنَّقْعُ مُعْتَكِرٌ

والحَقُّ مُطَّلَبٌ والثَّغْرُ مُبْتَسِمُ

ورايَةُ الوطنِ الغالي تُظِلُّهُمُ

كَأَنَّهَا حَضَنَتْ أفراخَها الرُّخَمُ[1]

رُوحٌ تَسيلُ على القِرْطَاسِ إنْ خطبوا

وقَدْ تَسيلُ على القِرْضابِ إنْ قحموا[2]

مِصْرُ وَلَيْسَ سِوَى مِصْرٍ لَهُمْ أَرَبٌ

إنْ تَشْقَ يَشْقَوا وإنْ تَنْعَمْ فَقَدْ نَعِموا

* * *

رجالَ مِصْرٍ شفيعي إنْ عَتَبْتُكُمْ

أَنَّ المُحِبَّ لَدَيْكُمْ ليسَ يُتَّهَمُ

إنِّي أخافُ عليكُمْ في تَحَزُّبِكُمْ

أَنْ تَنْصُروا الخَصْمَ وَهْوَ الخَصْمُ والحَكَمُ

تَخاصمونَ على ضَعْفٍ، وَخَصْمُكُمُ

وَهْوَ القَوِيُّ، عَلَيْكُمْ لَيسَ يَخْتَصِمُ

تَوَحَّدوا باسْمِ مِصْرٍ في تجهّمها

وطالعوا ثَغْرَ مِصْرٍ كيفَ يبتَسِمُ

سَعْدٌ أَرادَكُمُ حِلْفاً - فلا قُسِمَتْ

أَجْزاؤُكُمْ - حُبُّ مِصْرٍ لَيسَ يَنْقَسِمُ

---

(١) الرُّخم: طائر من الجوارح يشبه النسر.

(٢) القِرْضاب: السَّيف الباتر. قحموا: قطعوا.

سِيروا - لِكُلِّ أَخي دُنيا لُبانَتُهُ[1]
حَتَّى أذا ما رَبِحْتُمْ مِصْرَ، فَاقْتَسِموا

تاريخُ مِصْرٍ وَلودٌ، ما انْتَمى شَمَمٌ
إلّا إليه، وحابى نَفْسَهُ الشَّمَمُ

أُمُّ الحضارَةِ، بَلْ مَجْلَى أَشِعَّتِها
يومَ الحضارَةِ لَمْ تَعْلَقْ بِها رَحِمُ

تَقَهْقَرَتْ دُونَها الأَيّامُ واجِفَةً
فَهْيَ الشَّبابُ، وَتِلْكَ الشَّيبُ والهَرَمُ

* * *

مَنْ مُبْلِغٌ مِصْرَ عَنّا ما نُكابِدُهُ
إنَّ العُروبَةَ فيما بينَنا ذِمَمُ

رُكْنانِ لِلضّادِ، لَمْ تُفْطَمْ عُرًى لَهُما
هُمْ نَحْنُ إنْ رُزِئْتَ يَوْماً وَنَحْنُ هُمُ

* * *

وقال بمناسبة الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة المتنبِّي :

نَفَيْتَ عَنْكَ العُلى وَالظُّرْفَ وَالأَدَبا
وَإِنْ خُلِقْتَ لَها - إنْ لَم تَزُرْ حَلَبا

شَهْباءُ لَوْ كانَتِ الأَحْلامُ كَأْسَ طِلًى
في راحَةِ الفَجْرِ كُنْتِ الزَّهْرَ والحَبَبا

أَوْ كانَ لِلَّيْلِ أَنْ يَخْتارَ حِلْيَتَهُ
وَقَدْ طَلَعْتَ عَلَيْهِ، لا الشُّهُبا

---

(١) اللبانة: الحاجة.

لَوْ أَنْصَفَ العَرَبُ الأَحْرارُ نَهْضَتَهُمْ
لَشَيَّدوا لَكَ في ساحاتِها النُّصُبا
لَكِنْ خُلِقْتَ لأَمْرٍ لَيْسَ يُدْرِكُهُ
مَنْ يَعْشَقُ الذُلَّ أَوْ مَنْ يَعْبُدُ الرُّتَبا

* * *

مَلاعِبَ الصِّيْدِ مِنْ حَمْدانَ، ما نَسَلوا
إِلَّا الأَهِلَّةَ وَالأَشْبالَ وَالقُضُبا
الخالِعينَ عَلى الأَوْطانِ بَهْجَتَها
وَالرّافِعينَ عَلى أَرْماحِها القَصَبا
حُسامُهُمْ ما نَبا في وَجْهِ مَنْ ضَرَبوا
وَمُهْرُهُمْ ما كَبا في إِثْرِ مَنْ هَرَبا
ما جَرَّدَ الدَّهْرُ سَيْفاً مِثْلَ «سَيْفِهِمِ»
يُجْرِي بِهِ الدَّمَ أَوْ يُجْرِي بِهِ الذَّهَبا
رَبُّ القَوافي عَلى الإِطْلاقِ شاعِرُهُمْ
الخُلْدُ والمَجْدُ في آفاقِهِ اصْطَحَبا
سَيْفانِ في قَبْضَةِ الشَّهْباءِ لا ثُلِما
قَدْ شَرَّفا العُرْبَ بَلْ قَدْ شَرَّفا الأَدَبا

* * *

عُرْسٌ مِنَ الجِنِّ في الصَّحْراءِ قَدْ نَصَبوا
لَهُ السُّرادِقَ تَحْتَ اللَّيْلِ وَالقُبَبا
كأَنَّهُ تَدْمُرُ الزَّهْراءُ مارِجَةً
بِمِثْلِ أَلْسُنِ الأَفاعي تَقْذِفُ اللَّهَبا

أَوْ هَضْبَةٌ مِنْ خُرافاتٍ مُرَقَّعَةٌ
بِأَعْيُنٍ مِنْ لَظىً أَوْ مِنْ رُؤُوسِ ظُبى

تَخاصَرَ الجِنُّ فِيهَا بَعْدَ ما سَكِروا
وَبَعْدَ ما احْتَدَمَتْ أَوْتارُهُمْ صَخَبا

فَأَفْزَعَ الرَّمْلَ ما زَفُّوا وَما عَزَفوا
فَطار يَسْتَنْجِدُ القِيعانَ وَالكُثُبا

تَكَشَّفَ الصُّبْحُ عَنْ طِفْلٍ وَمارِدَةٍ
لَهُ عَلى صَدْرِها زَأْرٌ إِذا غَضِبا

كَأَنَّهُ الزِّئْبَقُ الرَّجْراجُ في يَدِها
أَوْ خَفْقَةُ البَرْقِ إِمَّا اهْتَزَّ وَاضْطَرَبا

نادَى أَبوهُ ـ عَظيمُ الجِنِّ ـ عِتْرَتَهُ،
فَأَقْبَلوا يَنْظُرونَ البِدْعَةَ العَجَبا

ماذا نُسَمِّيهِ؟... قالَ البَعْضُ: صاعِقَةٌ
فَقالَ: كَلّا... فَقالوا: عَاصِفاً ـ فَأَبى

فَقامَ كَالطَّوْدِ مِنْهُمْ مارِدٌ لَسِنٌ
وَقالَ: لَمْ تُنْصِفُوهُ اسْماً وَلا لَقَبا

سَنَبْعَثُ الفِتْنَةَ الكُبْرى عَلَى يَدِهِ
فَنَشْغَلُ النّاسَ وَالأَقْلامَ وَالكُتُبا

وَنَجْعَلُ الشِّعْرَ رَباً يَسْجُدونَ لَهُ
فَإِنْ غَوَواْ فَلَقَدْ نِلْنَا بِهِ الأَرَبا

* * *

وَاخْتـالَ غَيْـرَ قَليـلٍ ، ثُمَّ قـالَ لَـهُمْ:
سَمَّيْتُـهُ المُتَنَبِّي.... فَانْتَشَـوا طَـرَبـا
وَزَلْـزَلُـوا البِيـدَ حَتَّى كـادَ سـالِكُهـا
يَهْـوِي بِـهِ الـرَّحْـلُ لا يَـدْرِي لَـهُ سَبَبـا
يَـرى الـسَّـرابَ عُبـابـاً هـاجَ زاخِـرُهُ
وَالـرَّمْـلَ يَـلْتَحِفُ الأَزْهَـارَ وَالـعُشُبـا

* * *

إيـهٍ أَخـا الـوَفْـرَةِ الـسَّـوْداءِ كَمْ مَـلِكٍ
أَعـاضَـكَ التَّـاجَ مِنْهَـا، لَـوْ بِها اعْتَصَبـا
طَلَبْتَ بِـالـشِّعْـرِ دونَ الـشِّعْـرِ مَـرْتَبـةً
فَـشَـاءَ رَبُّـكَ أَنْ لا تُـدْرِكَ الـطَّلَبـا
إِذَنْ لأَثْـكَـلْتَ أُمَّ الـشِّـعْـرِ واجِـدَهـا
وَعُـطِّلَ الـوَكْـرُ لا شَـدْواً وَلا زَغَـبـا
لَـوْلا طِـمـاحُـكَ مـا غَنَّيْتَ قـافِيَـةً
بَـوَّأْتَهـا الشَّـمْسَ، أَوْ قَلَّدْتَـهـا الحِقَبـا
«خُـذْ مـا تَـراهُ وَدَعْ شَيْئـاً حَلِمْتَ بِـهِ»
فَـرُبَّ حِـلْمٍ جَميـلٍ أَوْرَثَ الـعَـطَبـا

* * *

أَبـا الفُتوحـاتِ لَمْ تُـزْجِ الخَميسَ لَهـا
وَلا لَـبِسْـتَ إِلَيْـهَـا البِـيضَ وَالـيَـلَبـا
تَـأْتِي الـتُّـخُـومَ فَـتَـلْقـاهـا مُـهَـلِّلَةً
مِـثْـلَ المَـريضِ أَتـاهُ بِـالـشِّفـاءِ نَـبـا

ما الفَتْحُ أَهْدَى إلَيْكَ الرَّوْضَ وَالسحُبا
كالفَتْحِ جَرَّ عَلَيْكَ الوَيْلَ وَالحَرَبا
وَلَوْ فَتَحْتَ بِحَدِّ السَّيْفِ لانْحَطَمَتْ
تِيجانُ قَوْمٍ، حَشَوْها الظُّلْمَ وَالرَّهَبا
«ما كُلُّ ما يَتَمَنَّى المَرْءُ يُدْرِكُهُ»
وَيُدْرِكُ الغايَةَ القُصْوَى وَما طَلَبا
قَدْ يُؤْثِرُ الدَّهْرُ إنْساناً فَيَحْرِمُهُ
مَنْ يَمْنَعِ الشَّيْءَ أَحْياناً فَقَدْ وَهَبا
يا مُلْبِسَ الحِكْمَةِ الغَرَّاءِ رَوْعَتَها
حَتَّى هَتَفْنا: أَوَحْياً قُلْتَ أَمْ أَدَبا
كَأَنَّما هِيَ أَصْداءٌ يُرَدِّدُها
هذا إذا بَثَّ، أَوْ هذا إذا عَتَبا
قالوا اسْتَباحَ أَرِسْطو، حينَ أَعْجَزَهُمْ،
وَإنَّهُ اسْتَلَّ مِنْ آياتِهِ النُّخَبا
مهْلاً، فَما الدَّهْرُ إلاَّ فَيْضُ فَلْسَفَةٍ
يَعودُ بِالدُّرِّ مِنْهُ كُلُّ مَنْ دَأَبا
مَنْ عَلَّمَ ابْنَ أَبي سُلْمَى «حَكيمَتَهُ»
وَقُسَّ ساعِدَةَ الأَمْثالَ وَالخُطَبا؟
قالوا الجَديدُ، فَقُلْنا: أَنْتَ حُجَّتُهُ
يا واهِباً كُلَّ عَصْرٍ كُلَّ ما خَلَبا
أَفِكْرَةٌ لَمْ تَكُنْ فَتَّقْتَ بُرْعُمَها
وَجِدَّةٌ لَمْ تَكُنْ أُمّاً لَها وَأَبا

بَعْضُ الجَـديـدِ الَّـذي يـدْعـونَـهُ أَدَبـاً
يَـمـوتُ في يَـومِـهِ، هَـذا إذا وُهِبـا
إنْ لَمْ يَكُنْ لَـكَ حُسْنُ الـوَجْـهِ تَعْـرِضُـهُ
فَـقَـدْ ظَلَمْتَ بِـهِ أَثْـوابَـكَ الـقُشُبـا
عَـفْـواً نَـبـيَّ الـقَـوافـي، أَيُّ نـابِـغَـةٍ
لَمْ يَـزْرَعـوا حَـوْلَـهُ البُهْتَـانَ وَالكَـذِبَـا
مَنَعْتَ عَنْهُمْ ضِيـاءَ الشَّمْسِ فَـانْحَجَبـوا
فَـهَـلْ تلومُـهُـمُ إنْ مَـزَّقـوا الحُـجُـبـا
أَضْـرَمْتَ ثَـوْرَتَـكَ الهَـوْجَـاءَ فَـالتَهَمَتْ
مِنَ القَـريضِ الهَشيمَ الـغَثَّ والـخَشَبـا
وَغـالَ شِعْـرُكَ شِعْـرَ الكـائِـدينَ لَـهُ،
لِنَفْسِهِـمْ حَفَـرَتْ أَيْـديـهِـمِ الـتُّـرَبـا
حَـتَّى رَجَـعْـتَ وَلِـلأَقْـلامِ هَـلْهَـلَةٌ
في كَفِّ أَبْلَغِ مَنْ غَنَّى وَمَنْ طَـرِبـا...

* * *

يـا خـالقـاً جيلَهُ، لَـوْلاكَ مـا عَـرَفَتْ
لَـهُ الأَواخِـرُ لا رَأْسـاً ولا ذَنَـبـا
غَضِبْتَ لِلْعَـقْـلِ أَنْ يَشْـقى فَـثُـرْتَ لَـهُ
بِمِثْـلِ ما انْـدَفَـعَ البُـرْكَـانُ وَاصْـطَخَبا
هَـلِ الـنُّـبُـوَّةُ إِلَّا ثَـوْرَةٌ عَـصَـفَـتْ
عَلى التَّقـاليـدِ حَتَّى تَـسْتَحيـلَ هَبـا
مـا ضَـرَّ مُـوقِـدَهَـا، وَالخُلْدُ مَنْـزِلُـهُ،
إذا رَمى نَفْسَـهُ في نـارِهـا حَـطَبـا...

حافظ إبراهيم

هو محمد حافظ إبراهيم (١٢٨٧ هـ / ١٨٧١ م - ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢ م) شاعر مصر القوميّ، ومدوّن أحداثها نيّفاً وربع قرن. لُقِّب بشاعر النيل، وطار صيته، واشتهر شعره ونثره. كان قويّ الحافظة، راوية، مرحاً، حاضر النكتة، بديع الإلقاء، كريم اليد في حالي بؤسه وشقائه. له ديوان شعريّ، وبعض المؤلّفات النثريّة.

من أهم قصائده في الهجاء قصيدتان، قال الأولى منهما في رثاء الشيخ محمد عبده، وقال الثانية في رثاء مصطفى كمال باشا، وفيما يلي نصّهما:

رثاء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

سَلامٌ على الإسْلامِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ
سَلَامٌ على أيّامِهِ النَّضِراتِ[1]
على الدِّينِ والدُّنْيا، على العِلْمِ والحِجا
على البِرِّ والتَّقْوَى، على الحسَنَاتِ
لقد كنتُ أَخْشَى عادِيَ المَوْتِ قَبْلَه
فأَصْبَحْتُ أَخْشَى أَنْ تَطُولَ حياتي

(١) النضرات: ذوات الحسن والرونق.

فـوا لـهَفِـي ـ والقَبْـرُ بَـيْنِـي وبَـيْنَــه ـ
علـى نَـظْرَةٍ مِنْ تِـلْكُمُ الـنَّـظَرات[1]
وَقَفْتُ عليـه حـاسِـرَ الـرَّأسِ خـاشِعـاً
كـأنِّي جِيـالَ الـقَبْـرِ فـي عَـرَفـات[2]
لـقـد جَـهِـلُوا قَـدْرَ الإمـامِ فـأوْدَعُـوا
تَـجـالِـيـدَهُ فـي مُـوحِشٍ بـفَـلاة[3]
ولـو ضَـرَحُـوا بـالمَسْجِـدَيْنِ لأنْـزَلُـوا
بِـخَيْـرِ بِـقـاعِ الأرض خَـيْـرَ رُفـات[4]
تَـبـارَكْتَ هَـذا الـدِّينُ دِيـنُ مُـحَـمَّـدٍ
أيُـتْـرَكُ فـي الـدُّنْـيـا بـغَـيْـرِ حُـمـاة؟
تَبـارَكْتَ! هَـذا عـالِمُ الشَّرقِ قـد قَضَى
ولانَـتْ قَـنـاةُ الـدِّيـنِ لـلغَـمَـزات[5]
زَرَعْـتَ لـنـا زَرْعـاً فـأخْـرَجَ شَـطْأهُ
وبِـنْـتَ ولـمَّـا نَـجْـتَـنِ الـثَّـمَـراتِ[6]

---

(١) وا لهفي: كلمة يتحسَّر بها على ما فات.

(٢) حاسر الرأس: عاريه. وحيال القبر: تلقاءه وأمامه.

(٣) تجاليد الإنسان: جسمه وبدنه. والفلاة: الصحراء الواسعة.

(٤) ضرح للميت: حفر له ضريحاً. ويريد «بالمسجدين»: المسجد الحرام بمكّة، وبيت المقدس. ورفات الميت: ما بلي وتكسَّر من عظامه. يقول: لو أنّهم حفروا بأحد المسجدين ضريحاً لهذا الجسم لكان حريّاً بذلك، لأنّه خير جسم يدفن في خير بقعة من الأرض.

(٥) قضى: مات. والقناة: الرمح. ولين القناة: كناية عن الضعف والوهن. ويريد «بالغمزات»: المطاعن الموجَّهة إلى الإسلام من أعدائه.

(٦) شطء الزرع: فراخه أو سنبله. وكنّى بالزرع: عمّا قام به الفقيد من ضروب الإصلاح، وبنت: بعدت.

فـواهــاً لــه ألَّا يُـصِـيـبَ مُـوَفَّـقـاً
يُـشَـارِفُـه والأرضُ غـيـرُ مَـوات[1]
مَـدَدْنـا إلى الأَعْـلام بَعْـدَكَ راحَـنـا
فـرُدَّتْ إلـى أَعْـطافِـنـا صَـفِـراتِ[2]
وجـالَـت بنـا تَبْغي سِـواكَ عُـيُـونُنـا
فَـعُـدْنَ وآثَـرْنَ الـعَـمَـى شَـرِقـاتِ[3]
وآذَوْكَ فـي ذَاتِ الإلٰـه وَأَنْـكَـروا
مَكـانَـكَ حتّى سَـوَّدُوا الصَّـفَحـاتِ[4]
رأَيْـتَ الأذى فـي جـانِـبِ الله لَـذَّةً
ورُحْـتَ ولَـمْ تَـهْـمُـمْ لـه بِـشَـكـاةِ
لقـد كنتَ فِيهِمْ كَـوكبـاً في غَـيـاهبٍ
وَمَـعْـرِفَـةً فـي أَنْـفُسٍ نَـكِـراتِ[5]
أَبَنْتَ لنـا التَّـنْـزيـلَ حُكْـمـاً وحِكْـمَـةً
وفَـرَّقْـتَ بيـن الـنُّـورِ والـظُّلُمَـاتِ[6]

---

(١) الضمير في «له» يرجع إلى الزرع. ويشارفه: يشرف عليه. والأرض الموات: الجدبة التي لا تنبت. يخشى ألّا يجد الزرع من يتعهّده بعد الفقيد مع خصوبة الأرض وقبولها لما يغرس فيها.

(٢) يريد «بالأعلام»: المشهورين من العلماء. والراح: جمع راحة، وهي الكفّ. والأعطاف: الخواصر. وصفرات، أي خاليات.

(٣) شرقات: أي محمرّات من البكاء.

(٤) يشير بهذا البيت وما بعده إلى المطاعن التي كان يوجّهها أعداء الفقيد إليه، وينشرونها في بعض الصحف تشهيراً به، وتحقيراً من شأنه.

(٥) الغياهت: الظلمات.

(٦) يشير بهذا البيت إلى الدروس التي كان يلقيها الأستاذ الإمام في تفسير القرآن.

وَوَفَّقْتَ بينَ الدِّينِ والعِلْمِ والحِجا
فأَطْلَعْتَ نُوراً مِن ثَلاثِ جِهاتِ
وَقَفْتَ (لِهانُوتُو) و (رِينانَ) وَقْفَةً
أَمَدَّكَ فِيها الرُّوحُ بالنَّفَحاتِ[1]
وخِفْتَ مَقامَ اللّهِ في كُلِّ مَوْقِفٍ
فخافَكَ أَهْلُ الشَّكِّ والنَّزَعاتِ[2]
وكَمْ لَكَ في إِغْفاءَةِ الفَجْرِ يَقْظَةٍ
نَفَضْتَ عليها لَذَّةَ الهَجَعاتِ[3]
وَوَلَّيْتَ شَطْرَ البَيْتِ وَجْهَكَ خالِياً
تُناجِي إِلٰهَ البَيْتِ في الْخَلَواتِ[4]
وكم لَيْلَةٍ عانَدْتَ في جَوْفِها الكَرَى
ونَبَّهْتَ فيها صادِقَ العَزَماتِ[5]
وَأَرْصَدْتَ للباغِي على دِينِ أَحْمَدٍ
شَباةَ يَراعٍ ساحِرِ النَّفَثاتِ[6]

---

(١) هانوتو: جبرائيل هانوتو السياسي المؤرِّخ الفرنسيّ. ولد في ١٩ نوفمبر سنة ١٨٥٣ م، وقد كتب مقالات في الطعن على الإسلام. ورينان: هو أرنست رينان الفرنسي، ولد في ١٧ فبراير سنة ١٨٢٣ م، وقد كان قسّاً كاثوليكياً، وهو مشهور بمطاعنه في الدِّين الإسلاميّ كصاحبه السابق، وقد ردَّ الفقيد على مطاعنهما. وتوفِّي رينان في سنة ١٨٩٢م. والروح: جبريل.

(٢) النزعات: الوساوس.

(٣) الإغفاءة: النومة. «ونفضت عليها» الخ، أي أنه خلع على اليقظة لذّة الهجعة فصار يتلذّذ من اليقظة تلذّذ الناس بالهجعة، أي النوم.

(٤) البيت: الكعبة.

(٥) الكرى: النوم. وصادق العزمات: من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي العزمة الصادقة.

(٦) أرصدت: أعددت وهيّأت. واليراع: القلم. وشباته: سنه. ونفثات القلم: ما يفيض به من كلمات تشبيهاً لها بما ينفثه الساحر في العقد.

إذا مَسَّ خَدَّ الطِّرْس فاضَ جَبِينُه
بأَسْطارِ نُورٍ باهِرِ اللَّمعَاتِ[1]

كأنَّ قَرارَ الكَهْرَباءِ بِشقِّه
يُريع سَناهُ أيْسَرُ اللَّمسَاتِ[2]

فيا سَنَةً مَرَّتْ بأَعْوادِ نَعشِه
لأنتِ علينا أشأمُ السَّنَواتِ

حَطَمْتِ لنا سَيْفاً، وَعَطَّلْتِ مِنْبَراً
وأذْوَيْتِ رَوْضاً ناضِرَ الزَّهراتِ[3]

وأطْفأتِ نِبْراساً وأشْعَلْتِ أنفُساً
على جَمَراتِ الحُزْنِ مُنْطَوياتِ[4]

رأى في لَيالِيكِ المُنَجِّمُ مَا رَأى
فأنْذَرَنا بالوَيْلِ والعَثَراتِ[5]

وَنَبَّأهُ عِلْمُ النُّجومِ بحادِثٍ
تَبِيتُ له الأبراجُ مُضطرِباتِ

رَمَى السَّرَطانُ اللَّيْثَ، واللَيثُ خادِرٌ
ورُبَّ ضَعيفٍ نافِذِ الرَّمَياتِ[6]

(١) الطرس (بالكسر): الصحيفة التي يكتب فيها.

(٢) سناه: ضوءه ونوره: يقول: كأنّ الكهرباء مستقرّة في شقّ هذا القلم، فمجّرد اللمس يظهر نوره.

(٣) حطمت: كسرت. وأوذيت: أذبلت.

(٤) النبراس: المصباح.

(٥) يريد «بالمنجّم»: أحد المنجّمين، وكان قد تنبّأ بوفاة الأستاذ الإمام في السنة التي توفّي فيها، وكتب ذلك في تقويمه السنويّ.

(٦) رمى السرطان... الخ، إشارة إلى أن المرحوم الإمام مات بالسرطان، وهو هذا الداء=

فَـأَوْدَى بِـه خَـتْـلاً فمـالَ إلى الثَّـرى
ومـالَـتْ لـه الأَجْـرَامُ مُـنْـحَـرِفَـاتِ[1]
وشاعَتْ تَعازي الشُّهْبِ باللَّمْحِ بَيْنَهـا
عن النَّـيِّـرِ الهـاوِي إلـى الفَـلَواتِ
مَشَى نَعْشُه يَخْتَـالُ عُجْبـاً بِـرَبِّـهِ
وَيَـخْـطِرُ بيـن اللَّمْس والـقُـبُـلاتِ[2]
تَـكـادُ الدُّمـوعُ الجـارِيـاتُ تُـقِـلُّه
وَتَـدْفَـعُـه الأَنْـفَـاسُ مُـسْـتَـعِـراتِ[3]
بَكى الشَّـرْقُ فـارتَجَّتْ لـه الأَرْضُ رَجَّةً
وضـاقَـتْ عُيـونُ الكَـوْنِ بـالعَـبَـرَاتِ
ففِي الهِنْـدِ مَحْزُونٌ، وفي الصِّينِ جـازِعٌ
وفـي (مِـصْـرَ) بـاكٍ دائـمُ الـحَـسَـرَاتِ
وفي الشَّـامِ مَفْجُوعٌ، وفي الفُـرْسِ نادِبٌ
وفـي تُـونُسٍ مـا شِئْـتَ مِـنْ زَفَـرات
بَـكى عـالَـمُ الإسـلامِ عـالِمَ عَـصْـرِه
سِـراجَ الـدَّيـاجِي هـادِمَ الشُّـبُـهَـاتِ[4]

= المعروف. والليث خادر: أي والأسد في أجمته. ويطلق السرطان أيضاً على برج في السماء يقابله برج الأسد الذي أطلق الشاعر عليه لفظ الليث. واستعمل الشطر الأوّل في المعنيين، كما يدل عليه سياق في الكلام في الأبيات التالي.

(١) أودى به: ذهب به. والختل: الخداع. والأجرام: الأفلاك.

(٢) ربه: صاحبه.

(٣) تقله: تحمله. ومستعّرات: مشتعلات من الحزن.

(٤) الدياجي: الظلمات.

مَـلاذَ عَـيَـايِيلٍ، ثِـمَـالَ أرامِـلٍ
غِـيَـاثَ ذَوِي عُـدْمٍ إمـامَ هُـدَاةِ[1]
فـلا تَنْصِبُـوا للنـاس تَـمثـالَ (عَـبْـدِهِ)
وإنْ كـانَ ذِكْـرَى حِـكْـمَـةٍ وَثَـبـاتِ
فـإنّـي لأخْـشَـى أنْ يَـضِـلُّوا فـيُـومِـئُـوا
إلى نُـورِ هـذا الـوَجْـهِ بـالسَّجَـداتِ[2]
فيـا وَيْـحَ للشُّـورَى إذا جَـدَّ جِـدُّهـا
وطـاشَـتْ بـهـا الآراءُ مُـشْـتَـجِـرَاتِ[3]
ويَـا وَيْـحَ لِلْفُتْيـا إذا قِـيـلَ مَـنْ لَهـا؟
ويـا وَيْـحَ لـلخَـيْـراتِ والـصَّـدَقـاتِ
بَـكَـيْـنَـا عَـلى فَـرْدٍ وإنّ بُـكَـاءَنـا
عَـلى أنـفُـسٍ لِـلّـهِ مُـنْـقَـطِعـات
تَـعَهَّـدَهَـا فَـضْـلُ الإمـامِ وَحـاطَـهـا
بـإحْسَـانِـه والـدَّهـرُ غيـرُ مُـواتِـي[4]
فـيـا مَنْـزِلاً فـي (عَيْـنِ شَمْشٍ) أظَلَّني
وأرْغَـمَ حُـسَّـادِي وغَـمَّ عُـداتِـي[5]

(١) الملاذ (بالفتح): الملجأ. وعيايل: جمع عيّل (بتشديد الياء). وعيل الرجل: من يتكفّل بهم ويمونهم ويقوم عليهم. وثمال الأرامل: من يقوم بأمرهن ويعينهن. والغياث: المغيث والمعين. والعدم: الفقر.

(٢) يومئوا: يشيروا. وقد ردّ الشاعر بهذا البيت على ما اقترحه بعضهم من إقامة تمثال للأستاذ الإمام.

(٣) يريد «بالشورى» مجلس شورى القوانين وكان الفقيد عضواً به. وطاشت: انحرفت عن القصد. ومشتجرات: مشتبكات لا يتميَّز فيها الحق من الباطل.

(٤) حاطها: صانها وحفظها. والمواتي: الموافق المساعد.

(٥) عين شمس: ضاحية من ضواحي القاهرة معروفة، وكان فيها بيت الفقيد.

دَعــائِمُــه التَّـقْــوَى وآســاسُــه ٱلهُــدَى
وفيــه الأَيــادِي مَــوْضِــعُ الــلَّبِنــاتِ
عليــكَ سَـلامُ ٱللَّهِ، مــا لَـكَ مُــوحِشــاً[1]
عَبُــوسَ المَغــانِي مُقْفِــرَ العَــرَصَــاتِ[2]
لـقــد كنتَ مَقْـصــودَ الجَــوانِـب آهِــلاً
تَــطُوفُ بِــكَ الآمــالُ مُــبْتَــهــلاتِ[3]
مَــثــابــةَ أَرْزاقٍ، ومَــهْــبِطَ حِــكْــمَــةٍ
وَمَــطْلَعَ أَنْــوارٍ، وكَــنْــزَ عِــظاتِ[4]

رثاء مصطفى كامل باشا

مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني في مصر وزعيم المناوئين للاحتلال، ولد في القاهرة سنة ١٨٧٤ وكان خطيباً سياسياً مصقعاً وصحافياً واسع النفوذ. واليه يرجع الفضل في إذكاء روح القومية المصرية وتوحيد صفوف المصريين للمطالبة بحقوقهم. توفي سنة ١٩٠٨، وهو في الرابعة والثلاثين من عمره وكان يوم جنازته يوماً شعبيّاً مشهوداً، وقد عمّ الحزن عليه مصر بل جميع الأقطار العربيّة، ورثاه الأدب العربيّ في كلّ مكان. ومِمّا قيل فيه قصيدة حافظ التالية:

أيا قبرُ هذا الضَّيفُ آمالُ أُمَّةٍ
فَكَبِّرْ وَهَلِّلْ والقَ ضَيْفَكَ جاثيا

---

(١) دعائم البيت: عمده. والأيادي: النّعم. واللبنات: ما يضرب من الطين للبناء، الواحدة لبنة.
(٢) الموحش: الخالي الذي ليس به ساكن. ومعانيه: منازله التي كان ينزل بها ساكنوه، الواحد مغنى. وعرصاته: ساحاته.
(٣) منزل آهل: عامر بأهله. ومبتهلات داعية مُتضَرّعة.
(٤) المثابة: المرجع. أي إن الناس كانوا يرجعون إلى هذا البيت في طلب أرزاقهم.

عزيزٌ علينا أنْ نَرَى فيكَ (مُصْطَفى)
شَهيدَ العُلَى في زَهْرَةِ العُمْرِ ذاويا
أيا قَبْرُ لَو أنّا فَقَدْناهُ وَحْدَهُ
لكانَ التَّأسّي مِنْ جَوَى الحزْنِ شافيا(1)
ولكِنْ فَقَدْنَا كُلَّ شَيْءٍ بِفَقْدِهِ
وَهَيْهَاتَ أنْ يأتي بِهِ الدَّهْرُ ثانيا
فيا سائلي أينَ المروءَةُ والوفا
وَأيْنَ الحِجَا والرأيُ؟ وَيْحَكَ ها هيا
هَنيئاً لهمْ فَلْيأْمَنُوا كُلَّ صائِحٍ
فَقَدْ أُسْكِتَ الصَّوتُ الذي كان عاليا(2)
وماتَ الذي أحيا الشُّعورَ وَساقَهُ
إلى المجدِ فاسْتَحْيَا النُّفوسَ البواليا(3)
مَدَحْتُكَ لَمّا كُنْتَ حيّاً فلم أُجِدِ
وَإنّي أجيد اليوم فيك المراثيا
عَلَيْكَ، وإلّا ما لِذا الحزنِ شاملاً
وَفيكَ، وإلّا ما لِذا الشَّعْبِ باكيا(4)
يموتُ المداوي للنفوسِ ولا يَرَى
لما فيهِ مِنْ داءِ النُّفوسِ مُداويا

(1) التأسّي: التصبّر والتعزّي. وجوى الحزن: حرقته.
(2) الضمير في «لهم»: للأنجليز.
(3) استحياه أي أحياه والاستحياء (لغة): الاستبقاء، يقال: استحيا فلان فلاناً، إذا أبقاه حيّاً.
(4) عليك، أي عليك الحزن، وفيك، أي فيك البكاء.

وَكُنّا نِياماً حينما كنتَ ساهداً
فَأَسْهَدْتَنا حُزْناً وَأَمْسَيْتَ غافيا

شهيدَ العلا، لا زالَ صَوتُكَ بيننا
يَرِنُّ كما قَدْ كانَ بالأمْسِ داويا

يُهيبُ بنا هذا بناءٌ أَقَمْتَهُ
فلا تَهْدِموا باللّهِ ما كُنْتَ بانيا[1]

يَصِيحُ بنا: لا تُشعروا الناسَ أَنَّني
قضيتُ وأَنَّ الحيَّ قد بات خاليا[2]

يُناشِدُنا باللّه أَلاّ تَفَرّقوا
وَكُونوا رجالاً لا تَسُرُّوا الأعاديا

فَرُوحي من هذا المقام مُطِلَّةٌ
تُشارِفُكُمْ عَنِّي وَإِنْ كُنْتُ باليا[3]

فلا تُحزِنوها بالخلافِ فإنَّني
أخافُ عليكُمْ في الخلافِ الدَّواهيا

أَجلْ، أَيّها الدّاعي إلى الخير إنّنا
على العهدِ ما دُمْنا فَنَمْ أَنْتَ هانيا

بناؤُكَ مَحْفُوظٌ، وَطَيْفُكَ ماثلٌ
وَصَوتُكَ مَسْمُوعٌ، وإنْ كُنْتَ نائيا

---

(١) أهاب به: صاح به ودعاه.
(٢) قضى: مات.
(٣) شارفه، نظر اليه من عَلٍ.

عَهِدْنَاكَ لَا تَبْكِي وَتُنْكِرُ أنْ يُرى
أخُو البَأْسِ فِي بَعْضِ المواطنِ باكيا
فَرَخِّصْ لنا اليومَ البُكاءَ وفي غدٍ
ترانا كما تَهْوَى جبالاً رواسيا
فيا نِيلُ إنْ لَمْ تجرِ بَعْدَ وفاتِهِ
دَماً أحْمَراً لا كنتَ يا نيلُ جارِيا
ويا (مِصْرُ) إنْ لَمْ تَحْفَظِي ذِكْرَ عَهْدِهِ
إلى الحشرِ لا زالَ انْحلالُكِ باقيا
ويا أَهْلَ (مِصْرٍ) إنْ جَهِلْتُمْ مُصَابَكُمْ
ثِقُوا أَنَّ نَجْمَ السَّعْدِ قد غارَ هاويا
ثلاثون عاماً[1] بل ثلاثون دُرَّةً
بجيد اللّيالي ساطعاتٍ زواهيا
سَتَشْهَدُ في التاريخِ أنَّكَ لَمْ تَكُنْ
فتًى مُفْرَداً بلْ كُنْتَ جَيْشاً مُغازيا

(١) توفي مصطفى كامل باشا عن أربعة وثلاثين عاماً، فالثلاثون في هذا البيت عدد تقريبيّ.

شفيق المعلوف

شاعر لبنانيّ، معاصر، ولد في زحلة سنة ١٩٠٥ م، وتثقّف تحت إشراف أبيه العلّامة عيسى، إسكندر المعلوف. أسهم بنشاط في «العصبة الأندلسيّة» التي أنشأها بعض الأدباء العرب المهاجرين إلى أميركا، وترأّسها مدّة من الزمن. له مؤلفات عديدة شعراً ونثراً، منها «رواية ليلى الأخيليّة»، و «نداء المجاذيف»، وملحمة «عبقر» التي تُرجمت إلى عدّة لغات أجنبيّة.

من أشهر قصائده في الرثاء تلك التي قالها في شقيقه فوزي.

أَهَـوَيْتَ أَبْحَثُ عَنْـهُ فِي التُّـرَبِ
تـاجٌ تَـدَحْـرَجَ عَنْ جَبِينِ أبـي
يـا مَوْتُ وَيْـكَ! صَفَعْتَ أيَّ أبٍ
شَيْـخٍ بِعِبْءِ سِنِيِّـهِ تَـعِبِ
عَـبَـثـاً تُـفَـتِّشُ تَـحْـتَ لِـمَّـتِـهِ
عَنْ شَعْـرَةٍ سَـوْدَاءَ لم تَشِبِ(١)
والأُمُّ! هل غَصَص النَّوَى تَرَكَتْ
في صَـدْرِهَـا شَـوْطـاً لِمُنْتَهِبِ؟

(١) اللِّمَّة: الشعر الذي يتجاوز شحمة الأذن.

وا طُولَ حَسْرَتِها وَقَدْ وَلَدَتْ
لِلْمَجْدِ لا لِحَفائِرِ التُّرَبِ!
فَوْزي، فَدَيْتُكَ، كُلُّ هاتِفَةٍ
في الصَّدْرِ تَنْطِقُ بآسْمِكَ العَذِبِ
باكَرْتُ قَبْرَكَ حِينَ رَوَّعَني
أنَّ القُبُورَ كَثِيفَةُ الحُجُبِ
فَوَدِدْتُ لَوْ كَفَّايَ بَعْثَرَتا
كُوَمَ الزُّهُورِ عَنِ الثَّرَى الرَّطِبِ
فَأُزِيلَ عَنكَ ثَرًى لُفِفْتَ بِهِ
مَنْ كانَ مِثْلُكَ لُفَّ بالسُّحُبِ
أَتَغُورُ تَحْتَ الأرْضِ زَوْبَعَةٌ
نَارِيَّةٌ قُدْسِيَّةُ اللَّهَبِ!
مُذْ ضاقَ عَنْهَا الكَوْنُ وَآكْتَنَفَتْ
طَرَفَيْهِ مِنْ قُطْبٍ إلى قُطْبِ
سَخَّرْتَ أجْنِحَةَ النُّسُورِ لَهَا
وَدَفَعْتَها وَثْباً إلى الشُّهُبِ
لَهْفِي على نَسْرٍ تَوَغَّلَ في
تَحْلِيقِهِ يَوْماً وَلَمْ يَؤُبِ
نَسْرٌ جَرِيءُ الوَثْبِ مُكْتَمِلٌ
رِيشَ الجَنَاحِ مُتَمَّمُ الأُهُبِ
ثَبْتُ التَّوَقُّلِ لا يَسُفُّ متى
وَطِىءَ الغَمامَ بِمَخْلَبٍ صَلِبِ[1]

(١) التوقّل: الصعود. يسفّ يمرّ على وجه الأرض.

ذَيَّـاكَ فَـوْزِي فَهْـوَ ليس سِـوَى
نَـسْـرٍ وَرَاءَ الغَـيْمِ مُـحْـتَـجِـبِ
لا هــذهِ الـرِّمَـمُ التـي فَـشِـلَتْ
وَثْبَـاتُهـا فَهَـوَتْ على الهِضَبِ[1]

* * *

وقال بمناسبة إزاحة الستار عن تمثال أخيه فوزي :

فَوْزِي، وَمَا لِي في الخُطُوبِ يَدَانِ
مـا هكَـذَا الأخَـوَانِ يَلْتَـقِيَـانِ
قَـرَّبْتُ صَدْري لِلْعِنَـاقِ فَلَمْ أَقَـعْ
إلَّا عـلى قِـطَـعٍ مِـنَ الـصَّـوَّانِ
هَشَّتْ لَـكَ الأزْمَانُ قَبْـلَ وِلَادهـا
فَـاْخْلَعْ زَمَانـاً وَاْتَّشِحْ بِـزَمَـانِ[2]
لِلَّهِ نَصْـبُـكَ فَهْـوَ أخْـلَدُ بُـرْدَةٍ
في الأرْضِ يَنْسُجُهَا الخُلُودُ الفاني[3]
نُصْبٌ خَفَضْتُ لَهُ الجُفُونِ كـأنَّما
نُصِبَتْ حِجَـارَتُـهُ على أجْفَـاني

---

(١) الرمم: ج رمّة، وهي ما بلي من العظام.
(٢) هشّت: تبسّمت وارتاحت، نشطت.
(٣) النصب: الصَّنَم، وهنا التمثال. بردة: ثوب مخطّط يلتحفُ به.

الدكتورة
مي حنا سعادة

أديبة لبنانيّة، وُلِدَت في أميون (لبنان الشمالي) سنة ١٩١٦ م، ونالت شهادة التخصّص بأمراض النساء والتوليد سنة ١٩٤٢ م. مارست، ولا تزال، الطبّ والجراحة النسائيّة في طرابلس. لها ديوان شعريّ بعنوان «أوراق العمر».

لُقِّبتْ، بحَقّ، شاعرة الأمومة في الأدب العربيّ، نظراً إلى قصائدها الرائعة التي قالتها في أبنائها، وخاصّة في ولدها الشهيد «نقولا» الذي استُشْهد في الحرب اللبنانية (١٩٧٥ م). تقول في إحدى قصائدها لابنها «حَنّا»:

لـو عَلى عَيْني بِنَعْلَيْـهِ مَشـى
لَمْ أَقُـلْ يومـاً لَهُ: يـا ابني تَـأَنّى

يمتاز رثاؤها لابنها «نقولا» باللّوعة الحارّة، والعاطفة المتدَفِّقة، فهي تتمثّل ابنها أبداً، وتخاطبه، وتصوِّره بحبّ أموميّ يفوق، في صدقه والتياعه كلّ وصف. وفيما يلي بعض النماذج منه:

الذكريات التائهة!

تَـلاَقَتْ ذِكْـرَيَـاتٌ في خَيـالي
أَتُنْسَى الـذِّكْرَيَـاتُ؟ مِنَ المحال

يُـؤَرِّقُنـي التـسـاؤُلُ عَـنْ فـراغ
فَـراغٍ في النَّهـارِ وفي اللَّيـالي
وَطِبِّي لا يُجيبُ وَلَـيْسَ يَـدْري
وَكُـتْبـي لا تَـرُدُّ عَـلى سُـؤالـي
أَلا فَـامْـلأْ فَـراغـاً في عُيـوني
وفي رُوحي وعُـدْ مِثْـلِ الهِـلالِ
تَثـورُ الـذِّكْرَيـاتُ تَمُـر سَكْـرَى
عَلَى عَيْني عَلى فِكْـري وَبـالي
فكُنْتَ تَعـودُ مِنْ بَعْـدِ افْتـراقٍ
وَتَحْمِلُني على وَهْـجِ الـوصـال
يُـزَنِّـرُنـي ذِراعُـكَ يَـا نِقـولا
على خَصْـري تَشُـدُّ بـلا كِـلالِ
تَـدورُ البيتَ بي فَـرَحـاً وشَـوقـاً
تَميـلُ مِنَ اليمينِ إلى الشِّمـالِ
وَفُسْـطانـي يُـفَـتِّـحُ فـيـه وَرْدٌ
وَتَـرْقُصُ في الهواءِ خيـوط شالي
فَـأَنْمَـلُ فَـوقَ صَـدْرِكَ مِنَ عَبيـرٍ
وَأَصْـعَـدُ للسَّـمـاءِ وَلاَ أُغـالي
وَتُهْمِـلُ كُـلَّ حَسْنـاءٍ أَمـامـي
تَعَثَّـرُ وَهْيَ تَمْشي فـي ظِـلالي
تُـصَـعِّـدُ إذْ تَـراكَ تَـنَـهُّـداتٍ
تَغـارُ منَ الـعِنـاقِ ومِـنْ دَلالي

من قال غاب؟

طـال البعـادُ أمـا قَـدْ حـان لُـقْيـانـا
أيـا نـقـولا، فـإنَّ الـبُـعْـدَ أوْهـانـا
إنْ كُـنتُ أبـدو أمـامَ الـنَّـاسِ هَـادِئَـةً
في قلب أُمِّـكَ قَـدْ فَـجَّـرْتَ بـركـانـا
مَنْ قـالَ: قَـدْ غـابَ؟ كَـلَّا لم يغبْ أبـداً
أراهُ فـي مُـقْـلَـة الإنْـسَـانِ إنْـسـانـا
أرَاهُ فـي كُـلِّ قَـوْمـيٍّ غـدا بَـطلاً
أراهُ فـي وَطَـنِ الأحْـقَـادَ قُـرْبـانـا
أراهُ فـي الـطِّبِّ في كُـتْبي على شَـفَتي
أراهُ فـي زهـراتِ الـوَرْد أَلـوانـا
أراهُ في الـطَّيـرِ في الأشجـار بـاسِقَـةً
أراهُ فـي نَـسَـمـاتِ الـفَـجْـر أَلْـحـانـا
أراهُ حـولـيَ في رفْـقٍ.... يُـداعِبُـنـي
وفي سَـريـريَ عنْـدَ الصُّبْـح أحيـانـا
يُـسِـرُّ لِـلأمِّ شَـكْـواهُ بـلا وَجَـلٍ
دَومـاً، وَيَـشْـرَحُ إشْـكـالاً وأشْـجـانـا
إنِّي سَـأَدْعـو ابْنَتي «ميّـا» ـ يُفـاجِئُني ـ
حُـبّـاً وَمَـكْـرَمَـةً مِـنِّـي وعـرْفـانـا!
إنَّ الـخُلودَ، أيـا ابـني، لـيسَ يُشـغلُـني
رَضـيتُ فِـيكـمْ، وكـان القَـلْبُ مَـلآنـا

شُكْراً حبيبي لَقَدْ أَعْطَيْتَنَا بَطلاً
بِهِ نَتيهُ، وَقَدْ رَفَعْتَنا شانا
هَلْ قَدْ تَرَكْتك يوماً؟ كيف تَتْرُكُني
ثَكلَى لأنْسُجَ للأَيّام أحْزانا؟
أصفُّ حَوْلَكَ وَرْداً كنتَ تَعْشَقُه
وَأَقْرأُ الكُتُبَ إنجيلاً وَقُرْآنا
كَمْ قَدْ طَلَبْتُ وكَمْ صَلَّيتُ جاثيةً
لِيَحْمِيَ اللَّهُ أَبطالاً وشجعانا
مضى شهيداً فَلِمْ أبكي عليه؟ لقَدْ
رَدَّ الوديعةَ لمّا الوقتُ قَدْ حانا
قد كان يملأُ «أميوناً» ببهجته
واليوم يملأُ كلَّ الكونِ إيمانا

أيلولُ ليس بقادمٍ

اليومَ لي بيتي ولي وَحْدي
وَلِيَ الدموعُ نَدًى ولي وَجْدي
الدَّمْعُ لا لتَفَجُّعٍ أوْ حَسْرةٍ
للذِّكرياتِ فماؤها وِردي
إنّي لأذكرُ يومَ كنتُ عليلةً
وَأَرَدْتُ أن تمضي مع الوُلْدِ
فصدفتَ عن كل الرفاق ولُعْبهمْ
وبقيتَ قربي رافضاً بُعدي

كمْ قَدْ حَرَصْتُ عَلى هناكَ مُدلِّلي
من ذا يكيلُ لكَ الهنـا بَعـدي؟
إنِّي جُمَعْتُ اليـاسَمِينَ أصـوغُـهُ
عِقْـداً لجيـدِكَ حـامِـلاً وجـدي
ويُــرادُ مِـنِّي أن أُغـيِّـر مَلْبَسي
تَغْييـرُ لون الثَّـوب هل يُجـدي؟
مــاذا يُــبــدِّلُ أَســودٌ أو أَبـيضٌ
في القلبِ مـا فيـه مِنَ الـوقْـدِ!
هذي قميصُكَ قد لبستُ أَما تَرَى
فَكَــأنَّهــا خيــطتْ على قَــدِّي
ركضتْ إليَّ وعانَقَتْني! هل دَرَتْ
أنِّــي حــبـيــبــةُ هــذِهِ الــبُــرد
حتَّى قميصُك هذِهِ الخَرْسا حَكتْ
لي قِصَّــةَ الأَبـطَالِ والمجــدِ!
أتـزورُ في أَيلول أُمَّـكَ مُهْجَتي؟
أَهُنِـاك وَصْـلٌ بَعــدَ ذا الصَّـدِّ؟
إنْ لَمْ تَعـدْ، أيلولُ ليس بقـادمٍ
سِيَّــان يَخفي الزَّهْــر أَوْ يُبـدي

نزار قباني

شاعر من كبار الشعراء العرب المعاصرين، فلسطينيّ الأصل، سوريّ المولد والجنسيّة، لبنانيّ الإقامة والهوى. ولد في دمشق في السنة ١٩٢٣ م/ ١٣٤٢هـ، وتخرَّج في الجامعة السوريّة بإجازة في الحقوق، وخدم وطنه في السلك الدبلوماسيّ ما بين السنة ١٩٤٥ م، والسنة ١٩٦٦ م. يُعتبر من كبار المجدِّدين في الأدب العربيّ المعاصر. لقِّب بـ«شاعر المرأة»، واشْتُهِر بالغزل، لا بالرِّثاء، ولكن له قصيدة طويلة قالها في رثاء زوجته العراقيّة بلقيس عندما قُتلت بانفجار في بيروت، وهي تدلّ على أنّ عبقريّة الشاعر لا تقتصر على ضرب من ضروب الفنّ الغنائيّ، فالمُبدِع المُجيد يُبدع ويُجيد في أيّ فَنّ غنائيّ عزف على أوتاره. وفيما يلي بعض المقاطع من هذه القصيدة.

شُكْراً لَكُمْ. . .
شُكْراً لَكُمْ
فَحَبِيبَتِي قُتِلَتْ، وصار بِوُسْعِكُمْ
أنْ تَشْرَبُوا كَأْساً على قَبْرِ الشَّهيدَهْ
وَقَصِيدَتي اغْتِيلَتْ. . .
وَهَلْ مِنْ أُمَّةٍ في الأرْضِ

إلاَّ نَحْنُ تَغْتَالُ القَصِيدَهْ

* * *

بَلْقِيسُ . . .
كانَتْ أجْمَلَ المَلِكَاتِ في تاريخِ بابِلْ
بَلْقِيسُ . .
كانَتْ أطْوَل النَّخْلاَتِ في أَرْضِ العِراقْ
كانَتْ إذا تَمْشِي
تُرَافِقُهَا طَوَاوِيسُ . .
وتَتْبَعُها أيائِلْ . . . .
بَلْقِيسُ . . . يا وَجَعِي . .
ويا وَجَعَ القَصيدَةِ حينَ تَلْمَسُها الأَنَامِلْ
هَلْ يا تُرَى . . .
مِنْ بَعْدِ شَعْرِكِ سَوفَ تَرْتَفِعُ السَّنابِلْ؟؟

* * *

يا نينَوى الخَضْراءَ
يا غَجَرِيَّتي الشَّقْراء
يا أمْوَاجَ دِجْلَةَ
تَلْبَسُ في الرَّبيعِ بِساقِها
أحْلَى الخَلاخِلْ

* * *

بَلْقِيسُ!
لا تَتَغَيَّبي عَنِّي

فَإنَّ الشَّمْسَ بَعْدَكِ
لا تُضِيءُ على السَّواحِلِ

* * *

بَلْقِيسُ
أيَّتُهَا الشَّهِيدَةُ.. والقَصِيدَةُ
والمُطَهَّرَةُ النَّقِيَّهْ...
سَبأٌ تُفَتِّشُ عَنْ مَلِيكَتِها
فَرُدِّي للجماهيرِ التَّحِيَّهْ

* * *

الموتُ في فنْجَانِ قَهْوَتِنا..
وفي مِفْتاحِ شِقَّتِنا...
وفي أزْهَارِ شُرْفَتِنَا...
وفي وَرَقِ الجَرَائِدِ...
والحروفِ الأبْجَدِيَّهْ...

* * *

بَلْقِيسَ...
يا عِطْراً بِذاكِرتي
ويا قَبْراً يُسَامِرُ في الغَمامْ
قَتَلُوكِ، في بيروت، مِثْلَ أيِّ غَزالَةٍ
مِنْ بَعْدِها.. قَتَلوا الكلامْ

* * *

بَلْقِيسُ

مُشْتاقون . . . مُشْتاقون . . مُشْتاقون .

والبيتُ الصَّغِيرُ . .

يُسائِلُ عَنْ أميرَتِهِ المُعَطَّرَةِ الذُّيولْ

نُصْغي إلى الأَخْبَارِ . . الأَخْبَارُ غامِضَةٌ

ولا تَرْوي فُضُولْ

* * *

بَلْقِيسُ . . .

مُذْبَحونَ حَتَّى العَظْمِ

والأَوْلادُ لا يَدْرونَ ما يَجْرِي

ولا أَدْرِي أنا ماذا أَقولْ

* * *

هل تَقْرعين البابَ بَعْدَ دَقائِقٍ

هَلْ تَخْلَعِينَ المعطَفَ الشَّتَوِيَّ

هَلْ تَأْتِي باسِمةً . . .

ونَاضِرَةً . .

وَمُشْرِقَةً كَأَزْهَارِ الحُقُولْ

* * *

بَلْقِيسُ . . .

إنَّ زُروعَكِ الخَضْراءَ

ما زالتْ على الحيطانِ باكِيةً

وَوَجْهَكِ لَمْ يَزَلْ مُتَنَقِّلاً

بينَ المرايا والسَّتائِرْ
حَتَّى سجارتُكِ التي أشْعَلْتِها
لَمْ تَنْطَفِىءْ
ودُخانُها
ما زال يَرْفُضُ أنْ يُسافِرْ

* * *

بَلْقِيسُ . . .
مَطْعُونونَ مَطْعُونونَ في الأَعْمَاقِ
والأَحْداقُ يَسْكُنُها الذُّهُولْ
بَلْقِيسُ . .
كيفَ أَخَذْتِ أيَّامِي وَأَحْلامي
وَأَلْغَيْتِ الحدائِقَ والفُصولْ؟!!

* * *

يا زوجَتي . .
وحبيبَتي . . وقصيدتي . . وضياءَ عَيْني
قَدْ كُنْتِ عُصْفوري الجميلَ
فكيفَ هَرَبْتِ يا بلقيسُ مِنِّي؟

* * *

بَلْقِيسُ . .
هذا موعِدُ الشّايِ العِراقيِّ المُعَطَّرِ
والمُعَتَّقِ كالسُّلافهْ
فَمَنْ الذي سَيُوزِّعُ الأَقْداحَ، أَيَّتُها الزّرافَهْ

وَمَنِ الذي نَقَلَ الفُراتَ لبَيْتِنا
وورودَ دِجْلَةَ والرّصافَهْ

* * *

بَلْقِيسُ . . .
يا بَلْقِيسُ . . .
يا بَلْقِيسُ . . .
كُلُّ غَمَامَةٍ تَبْكِي عليكِ
فَمَنْ تُرَى يَبْكِي عَلَيَّ
بَلْقِيسُ . . . كيفَ رَحَلْتِ صامِتَةً
ولَمْ تَضَعِي يَدَيْكِ على يَدَيّا؟

* * *

بَلْقِيسُ . . .
أسْأَلُكِ السَّمَاحَ، فَرُبّما
كانَتْ حَيَاتُكِ فِدْيَةً لِحَياتِي
إنّي لأَعْرِفُ جَيِّداً
أنَّ الذينَ تَوَرَّطُو في القَتْلِ كانَ مُرادُهُمْ
أنْ يَقْتُلوا كَلِماتِي

* * *

نامي بِحِفْظِ اللَّهِ، أيَّتُها الجميلَهْ
فالشِّعْرُ بَعْدَكِ مُسْتَحِيلْ
والأُنُوثَةُ مُسْتَحِيلَهْ

سَتَظَلُّ أَجْيالٌ مِنَ الأطفالِ
تَسْأَلُ عَنْ ضَفائِرِكِ الطَّوِيلَهْ
وَتَظَلُّ أَجْيالٌ مِنَ العُشَّاقِ
تَقْرَأُ عَنْكِ أَيَّتُها المعَلِّمَةُ الأَصِيلَهْ...

جورج غانم

جورج غانم، شاعر لبنانيّ، ولد في بسكنتا سنة ١٩٤٣، ونشأ على حُبّ الشعْر في بيت والده الشاعر عبد الله غانم. عمل في التدريس والإدارة والصحافة، وحصّل ثقافة فنّيّة متنوّعة من رمزيّة إلى رومنطيقيّة إلى كلاسيكيّة. يتميّز أدبُه بأناقة الأسلوب وفرح الأجواء، وتنوّع المواضيع. من مؤلفاته: «أزهار في الخريف»، «نداء البعيد»، و«أصوات وراء الحدود».

من أشهر قصائده في الرثاء تلك التي قالها في والده.

والدي

١ ـ وَعُدْنا، وشَدَّ الفراغُ علينا
وأَقْفَرَتِ الأرضُ أنّى مَشَيْنا
وخِفْنا نُردّد اسمَكَ خِفْنا نُردِّدُ شِعْرَكْ
فذِكراكَ نَهْرٌ من النّار يَجري إلينا
وحِينَ عرفناكَ أنّكَ أمسيتَ وحدَكْ
بَكيناكَ حتّى بكينا خُلودَكْ بَعدَكْ.

٢ ـ ومَرَّ زمانْ
غيومٌ وريحٌ وغربهْ

لیالٍ تَطاوَلُ فيها الثَّوانْ
ولا صوتَ في بيتِنا لا ضِياءْ
نَسَجْنا على كلِّ عَيْنٍ مساءْ
ولمْ يَبْقَ إلاّ خيالُكَ نَقْبَعُ قربَهْ
وكان دخانْ .

٣ ـ أبي أين وجهُكَ أين يَراعُكْ
هجرتُ يراعيَ مُذْ غابَ عنّا شِراعُكْ
وأينَ الأحاديثُ بيني وبينَكْ
نُردِّدُها في العَشِيّ
وأبقى لَعينيكَ هذا الصَّبِيّ
يُدغدِغُ حضنَكْ
بَقاياكَ في البيت ثوبٌ عتيقْ
حذاءٌ جوارِبْ .

٤ ـ عصاً لا تُمَسُّ
دفاترُ نثرٍ وشِعرِ
غبارُ سَرابٌ وحزنُ
بقاياكَ جرحٌ بقلبي وقلبِ الشَّبابِ
وفي قلبِ أمّي جراحُ
بقاياكَ فينا رِياحُ .

٥ ـ أبي أينَ صوتُكَ أينَ الحنانْ
قطعتَ تُخومَ الزَّمانْ

وأمسى مكانُكَ ذاك المكانْ
نُرجِّعُ ذكراكَ لحناً ويُخْنَقُ لحنُ
أبي مِن بقاياكَ نحنُ
شبابٌ يُعيدُ الى العمر وجهَ الفُتُوَّهْ
أبي صِرْتَ في كلِّ فِكْرٍ نُبُوَّهْ.

٦ ـ أُناديكَ آناً أناديكَ أَمْسَا
لتُشرِقَ فوقَ نهارِيَ شمسَا
لتُنبِتَ في راحتيَّ زُروعَا
وتُوجِدَ في مُقلتيَّ الرَّبيعَا
فيخصبَ تُرْبُ. . .
تُعلِّمُني كيف أُعطي وكيف أُحِبُّ
تُعلِّمني كيف يحيا الأُباةُ
وماذا تُريدُ الحياةُ
أبي عندما تتردّى الشّرورُ
تُعلِّمُني أيَّ شَعْبٍ أُثيرُ

نُصبُ مدفني
إغريقي
في رودس

اعتاد الإغريق وضع أنصاب رخـاميّة على مـدافن موتـاهم تكريمـاً لهم وحفظاً لذكرهم. وتتكون هذه الانصاب من حجر مستطيل يزيّنه حفر ناتىء يمثّل الميت مع أحد أفراد عائلته في موقف حنان وعطف.

يحمل هذا النصب في أعلاه اسم كراتيو وتيماريستا وهو يمثّل شخصين في وقفة جانبيَّة، يد كلٍّ منهما على كتف الآخر في موقف تعزية وتأسٍّ. وقد أظهر النحّات طيّات الثوب الإغريقيّ بكلّ أمانة ودقّة، وأوحى بالهدوء والأسى المناسبين للموضوع ولموقع الحجر المدفنيّ.

مُتَفَرِّقات
في الرِّثاء

(١)
مَرْثِيَة الأيَّام الحاضرة

الرِّيحُ ثقيلةٌ علينا، ورَمادُ أيّامِنا على الأرض. نلمحُ روحَنا في بَريقِ شَذْرةٍ أو على طَرَفِ خُوْذَة، وخَريفُ المَمالِحِ يتناثرُ فوقَ جِراحِنا، وما من شجرةٍ أو نَبْع.

الليْلُ يَتَخَثَّرُ(١)، وفوقَ جُثَثِ العصافير تَدِبُّ(٢) طفولةُ النَّهارِ، والبحرُ يُغلِقُ في وجهِنا سريرَه، وعَبَثاً يتزحزحُ البابُ المُوْصَدُ(٣). ونصرُخُ. ونحلُمُ بالبُكاء، ولا دمعَ في العيون، ونَلوي أعناقَنا تحتَ الرّيحِ والصَّقيع . . .

ونمضي، صدورُنا الى البحر، وفي كلماتِنا يرقُدُ نَحيبُ(٤)عصرٍ آخرَ، وكلماتُنا لا وريثَ لها، نُعانِقُ جُزُرَ الوَحْدَة، نَشُمُّ الغرابةَ البِكْرَ في قَعْرِ الهاوية، ونسمعُ مراكبَنا ترسِلُ خُوارَها(٥) اليائسَ، واليَأْسُ هلالٌ طالعٌ، والشّرُّ في طفولتِه. وعندَ مَساقِطِ الأنْهُرِ في بحرِنا المَيْت، يَلِدُ الليْلُ أعياداً وعرائسَ من الزَّبَد والرَّمْل، من الجَرادِ والرَّمْل.

---

(١) يتخثّر: يتراكم الدم ويفسد.

(٢) تدبّ: تزحف ببطء.

(٣) الموصد: المقفل.

(٤) نحيب: بكاء وعويل

(٥) الخوار: صوت الثور.

ونمضي في مُنحدراتٍ منَ الوحلِ والنَّحيبِ، والأرضُ تنزَفُ دماً في خواصِرِنا، الحياةُ هزيلةٌ في هذه الدّقائقِ من العمر، النّهارُ لا حواجبَ له، وليس للشّمسِ أهدابٌ طويلةٌ، وتحتَ أقنعـةِ الجليدِ والـرّملِ نكبَـرُ ويكبَرُ النّاس.

أدونيس
(بتصرّف)

رثاء تلميذة

قال الياس عَشيٍّ في رثاء تلميذة له سقطت بشظيّة في الحرب اللبنانيّة الأخيرة.

١ ـ عِنْدما يصير الوطن نَفَقاً، تُلغى المسافَةُ بينَ وَجْهٍ وَوَجْه، وتَنطفىء العيون، وتُصبحُ غربَةُ الإنسانِ مشابهةً لِغُرْبَةِ الوَطنِ، ولِغُرْبَةِ الموتِ.

٢ ـ عِنْدما قالوا: لارا نَجَحَتْ لم أَنْفَعِلْ، فنجاحُ لارا كان واضحاً كَوضوحِ ابْتِسامتِها المزروعَةِ في أرجاءِ الصَّفِّ، وعندما قالوا: لارا ماتَت، لم أَبْكِ، فَمَوْتُ الياسمين قَدَرٌ لِتَبْقَى السماءُ مُعَطَّرَةً، وموتُ الياسمين لا يتوقَّفُ عِنْدَ سورِ الحديقة، بل هو مَوْتٌ نَبَوِيٌّ لَهُ نَكْهَةُ الطفولَةِ التي لَمْ يَرْحَمْها أَحَدُ في هذهِ السَّنَواتِ العِجافِ. كيف تموتين، يا لارا، بشظيَّةٍ وأحلامك كانت كالورد؟

٣ ـ تأكّدي يا لارا أنَّ موتَك أَلْغَى عَقْلي، وحَوَّلني في لحْظَةٍ إلى مشاعِر متناقِضة مفكّكة لا ضابط لها سوى ذكرى عامين كنتِ فيهما تلميذتي، وسأبقى مع بقيَّة الأساتذة والزملاء نذكر عينيك الوامضتين وشعرك المجدول كأنّه الشلال، وغمّازتين على الوجه تُسامرين بهما الحقول.

٤ ـ وبَعْدَ شَهْرٍ نعودُ إلى المدْرَسَةِ دونَكِ، وسنَفْقِدُك يا لارا، وسَنُحاوِل الاّ نَبْكي، فَأَنْتِ تكْرَهينَ البكاء، لكنّنا نَعِدُك بأَنّك ستَبْقين في قلوبنا جميعاً: جديلةً، وغمّازتين، وشَعْراً.

الياس عشيّ

متفرّقات رثائية

إجْـرَحِ القَلْبَ واسْقَ شِعْرَكَ مِنْـهُ
فَـدَمُ الـقَلْبِ خَـمْـرَةُ الأَقْـلامِ

الياس أبو شبكة

* * *

نصيبُـك في حيـاتِـك مِنْ حَبيبٍ
نَصيبُـكَ في مَنامِـكَ مِنْ خَيالِ
رمــاني الـدَّهْــرُ بِــالأَرْزاءِ حَتَّى
فُـؤادي في غِـشـاءٍ مِنْ نِـبــالِ
فَصِــرْتُ إذا أصــابتني سِـهـامٌ
تَكسَّـرَتِ النِّصـالُ على النِّصـالِ

المتنبيّ

* * *

قال ابن الجهم يرثي أولاده:

فــارَقْـتُكُـمْ، وَحَيِيتُ بَـعْـدَكُـمُ
مــا هٰكَــذا كــانَ الــذي يَجِبُ

إنِّـي لَألْقَـي الـنـاسَ مُـعْـتَـذِراً
مِـنْ أنْ أعِـيْشَ، وَأنْـتُـمُ غُـيُـبُ

* * *

قال أمين نخلة في رثاء شبلي المّلاط:

إنْ تَرَى الرَّجْفَ حِيناً في أَنامِـلِهِ
فَذاكَ مِنْ طولِ مَسِّ الوَحْيِ لِلْقَلَمِ

* * *

وَأَعُـودُ بالـذِّكْرَى على عَهْـدٍ لَنَـا
رَفَّـتْ عـليـهِ نَـضَـارَةٌ وَسَـنَـاءُ
أَيَّـامَ نَضْحَـكُ والمُنَى مَعْسُـولَـةٌ
ولِـكُـلِّ شَـيْءٍ رَوْنَـقٌ وَرُواءُ
نَخْتَالُ في رَوْضِ الشَّبابِ وَبُرْدِهِ
وَنَخَـالُ أنَّـا وَحْـدَنـا الأحْيَـاءُ

محمّد كوسا

* * *

روى الأصمعيّ أنّه رأى بالبادية امرأة ألصقت خدّها بقبر زوجها وهي تبكي، وتقول:

خَـدِّي تَقِيـكَ خُشُـونَـةَ اللَّحْـدِ
وَقَلِيلَةٌ لَـك، سَيِّـدي، خَـدِّي
يـا سـاكِنَ القَبـرِ الـذي بِـوفـاتِـهِ
عَمِيَتْ عَلَيَّ مَسـالِكُ الـرُّشْـدِ
اسْـمَـعْ أَبُثُّـكَ عِـلَّتي فَـلَعَلَّني
أُطْفِي بِـذلِـك حُـرْقَـةَ الـوَجْـدِ

* * *

تزوَّج الأمين بفتاة، وتُوفِّي عنها قبل أن يبني بها، فندبته ندباً حاراً، ومن قولها فيه:

أَبْـكِيـكَ لا لـلنَّـعيـمِ والأُنُسِ
بَـلْ لِلْمَعالي والـرُّمْحِ والفَـرَسِ
أَبْكي عـلى سَيِّـدٍ فُـجِعْـتُ بِـهِ
أَرْمَـلَني قَـبْـلَ لَـيْـلَةِ الـعُـرُسِ

* * *

من أروع ما رُثي به الـزوجات وأشجـاه قول محمـد بن عبد الملك الزّيّات في زوجته:

أَلاَ مَنْ رَأى الطِّفْلَ المُفـارِقَ أُمَّهُ
بُعَيْـدَ الكَـرَى عَينـاهُ تَبْتَـدِرانِ[1]
رَأى كُـلَّ أُمٍّ وابْنَـها غَيْـرَ أُمِّـهِ
يبيتـانِ تحت اللَّيـلِ يَنْتَجيـانِ
وبـاتَ وحيداً في الفـراشِ تَحُثُّهُ
بَـلابِلُ قَـلْبٍ دائِمِ الـخَفَـقَـانِ
فـلا تَلْحَيـاني إنْ بكيتُ فَـإنَّما
أُداوي بهـذا الدَّمْـعِ ما تَـرَيـانِ
وإنَّ مكاناً في الثَّـرَى خُطَّ لَحْدُهُ
لِمَنْ كـانَ في قَلْبِي بِكُـلِّ مكـانِ

---

(١) يبتدران: يسيلان بالدموع.

أَحَقُّ مكـانٍ بـالـزِّيـارَةِ والهَـوَى
فَهَـلْ أَنْتُمـا إنْ عُجْتُ مُنْتَـظِرانِ

* * *

ماتت شريكة حياة محمود سامي البارودي، وهو منفيّ في سرنديب (جزيرة سيرلنكا) ، فَحُرِمِ أولاده أباهم وأمَّهم مـعـاً. واجتمع عليه بذلك أسى النفي، والفقد، وحرمان الأبناء، مِمّن كانت أنسهم في غيبته وأمنهم وسعادتهم، ولم يلبث أن بثّ حسرته المتوقّدة وحرقته المتأجّجة في مرثية طويلة يقول فيها:

يـا دَهْـرُ فِيمَ فَجَعْـتَني بحـليلةٍ
كـانتْ خُلاصَـةَ عُـدَّتي وَعَتـادي
إنْ كُنْتَ لَمْ تَرْحَمْ ضَنايَ لِبُعْدِها
أَفَـلا رَحِمْتَ من الأَسَى أولادي
أَفْـزَدْتَهُنَّ فَلَمْ يَنَمْنَ تَـوَجُّـعـاً
فَـرْحَى العُيـونِ رَواجِفَ الأَكْبـادِ
يَبْكِينَ مِـنْ وَلَـهٍ فِـراقَ حَفِيَّـةٍ
كـانَـتْ لَهُـنَّ كَثيـرَةَ الإِسْعـادِ
فَخُـدُودُهُنَّ مِنَ الـدّمـوعِ نَـدِيَّـةٌ
وَقُلُوبُهُنَّ منَ الهُمـومِ صَـوادي

* * *

كان مالك بن الرَّيب في غزوة في خراسان، فحضرته المنيَّة، فناح على نفسه قائلاً:

فَيـا صاحِبَيْ رَحْلي دَنـا المـوتُ فـاحْفِـرا
بَـرابَـيَـةٍ، إنِّـي مُـقـيـمٌ، لـيـالـيـا

وَخُـطًا بِـأَطْـرافِ الأَسِنَّـةِ مَضْجَعي
وَرُدًّا عـلى عَـيْـنَـيَّ فَـضْـلَ رِدائـيـا

خُـذاني، فَجُـرّاني بِبُـرْدِي إليكُـمـا
وَقَـدْ كُنْتُ، قَبْلَ اليـوم، صَعْباً قيـاديا

تَـفَقَّـدْتُ مَـنْ يَبْكي علَيَّ فَلَمْ أَجِـدْ
سِوى السَّيْفِ والـرُّمْـحِ الـرُّدَيْنِيِّ بـاكيا

وبـالـرَّمْـلِ مِنّـا نِسْـوَةٌ لَـوْ شَهِـدْنَني
بَـكَـيْـنَ وَفَـدَّيْـنَ الـطَّبيـبَ المُـداوِيـا

عَـجـوزي وَأُخْتـايَ اللّتـان أُصيبتـا
بِـمَـوْتي وبِنْـتٌ لي تـهـجُ البـواكِيـا

ومـا كـانَ عَـهْـدُ الـرَّمْـلِ مِنّي وَأَهْلِهِ
ذَمِيمـاً ولا بـالـرَّمْـلِ وَدَّعْتُ قـالِيـا(١)

يَـقـولـون: لا تَبْـعَـدْ وَهُمْ يَـدْفُنـوني
وَأَيْـنَ مَـكـانُ الـبُـعْـدِ إلاّ مـكـانـيـا

* * *

أوصَى أبو العتاهية بأن يُكتب على قبره هذه الأبيات الأربعة:

أُذْنَ حَـيٍّ تَـسَـمَّـعِـي
اسْـمَـعِـي ثُـمَّ عِـي وَعِـي

أَنـا رَهْـنٌ بِـمَـضْـجَـعِـي
فَـاحْـذَرِي مِـثْـلَ مَـصْـرَعِـي

(١) القالي: المُبغِض الكاره.

عِـشْـتُ تِـسْـعـيـنَ حِـجَّـةً

ثُـمَّ وافـيـتُ مِـضْـجَـعـي

لَـيْسَ شَـيْءٌ سِـوى الـتُّـقَـى

فَـخُـذي مِـنْـهُ أو دَعـى

* * *

الفهرس

المقدمة ٥

من الرّثاء في العصر الجاهلي

المهلهل ٩
رثاء كليب ١٠
الخنساء ١٣
رثاء صخر ١٤
قذًى بعينك ١٥

من الرّثاء في العصر الإسلامي والأمويّ

متمّم بن نويرة ٢١
حسّان بن ثابت الأنصاري ٢٣
رثاء الرّسول ٢٣
جرير ٢٧

رثاء امرأته ٢٨
رثاء ابنه ٣٠
في رثاء معن بن زائدة ٣٢

من الرّثاء في العصر العبّاسيّ

أبو تمّام ٣٧
ابن الرومي ٤٣
رثاء ابنه الثالث ٤٤
رثاء ولده الأوسط ٤٤
الشريف الرّضيّ ٤٩
أبو العلاء المعرّي ٥٣
المتنبّي ٥٩
رثاء أم سيف الدولة ٥٩
رثاء محمد بن بقيّة ٧١
علي بن محمّد التهاميّ ٧٥

من الرّثاء في العصر الأندلسيّ

أبو البقاء الرُّنديّ ٨١
رثاء الأندلس ٨١

من الرّثاء في العصر الحديث

الياس أبو شبكة ٨٧
مصطفى المنفلوطي ٩١
صلاح لبكي ٩٥
الأخطل الصغير ٩٩
حافظ إبراهيم ١٠٩

رثاء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ١٠٩
رثاء مصطفى كامل باشا ١١٦
شفيق المعلوف ١٢١
الدكتورة مي سعادة ١٢٥
الذكريات التائهة ١٢٥
من قال غاب ١٢٧
أيلول ليس بقادمٍ ١٢٨
نزار قباني ١٣١
جورج غانم ١٣٩
والدي ١٣٩
نصبُ مدفني اغريقي في رودس ١٤١
سلفادرو دالي ـ إلحاح الذاكرة ـ ١٩٣١ .... ١٤٢

متفرقات رثائيّة

مرثية الأيام الحاضرة ١٤٥
رثاء تلميذة ١٤٧
متفرّقات رثائيّة ١٤٩

سلسلة «أروع ما قيل»

أروع ما قيل في الاجتماعيات
أروع ما قيل في الإخوانيات
أروع ما قيل في الحب والغزل
أروع ما قيل في الحكمة
أروع ما قيل في الخمرة ومجالسها
أروع ما قيل في الرثاء
أروع ما قيل في الزهد والتصوف
أروع ما قيل في الزواج
أروع ما قيل في الفخر والحماسة
أروع ما قيل في المديح
أروع ما قيل في المرأة
أروع ما قيل في الموت
أروع ما قيل في الهجاء
أروع ما قيل في الوجدانيات
أروع ما قيل في الوصف
أروع ما قيل في الوطنيات
أروع ما قيل من الأدعية
أروع ما قيل من أغان وأشعار للأطفال
أروع ما قيل من الأمثال
أروع ما قيل من الحكايات ٢/١
أروع ما قيل من الخطب
أروع ما قيل من الرباعيات
أروع ما "كتب" من الرسائل
أروع ما قيل من الطرائف
أروع ما قيل من قصص العشاق ٢/١
أروع ما قيل من الموشحات
أروع ما قيل من النوادر
أروع ما قيل من الوصايا